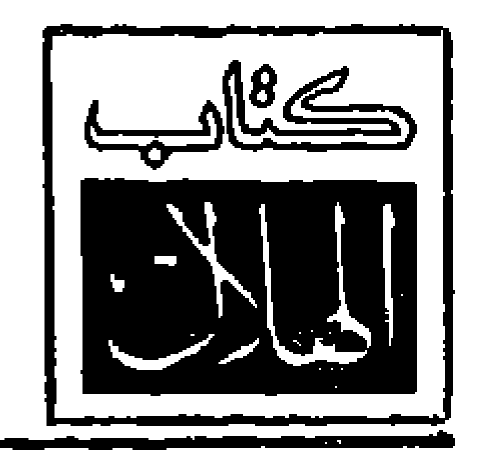
كتاب الهلال

الخطوط السرية لغزو مصر

د. أحمد يوسف



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون. ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO - 525 - SE - 1994

العدد ٥٢٥ - ربيع أول - سبتمبر ١٩٩٤

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشاً

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالاً - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهماً - البحرين ١,٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالاً - دبي / أبو ظبي ١٢ درهماً - مسقط ١,٢٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - لندن ١,٥٠ جك .

المخطوط السرى لغزو مصر

ترجمة

د. أحمد يوسف

دار الهلال

الغلاف للفنان :

حلمى التونى

تقـــديم

بـقـلـم : كامــل زهيــرى

هذا كتاب خطير .

يكشف صفحة مجهولة أو مغمورة ظلت خافية عن مشروع قديم لغزو مصر فى القرن السابع عشر . تقدم هذا المشروع وسـبق الحملة الفرنسـية التى قـادها بونابرت ، وسوف يكتمل على مرورها مائتا عام بعد أعوام قليلة لا تزيد على الأربعة .

ويقدم هذا الكتاب أول ترجمة بالعربية لذلك المشروع الخطير الذى كتبه الفيلسوف الألمانى ليبنيز عام ١٦٧٢ باللاتينية والفرنسية ، وأرسله إلى الملك لويس الرابع عشر أقوى ملوك أوربا أو «الملك الشمس» كما كان يوصف . وفيه يدعو الفيلسوف الملك أن يكف عن حروبه الأوربية ،

وألا يعمد إلى غزو هولندا ، ولا يخوض حروبه البرية مع المسيحيين في أوربا ، فيعبر البحر إلى مصر . لأن الاستيلاء عليها سوف يوقف المد العثمانى الإسلامى وسط أوربا ، لأن تركيا العثمانية تهدد بولندا والمجر والنمسا .

وباستثناء ما كتبه بالفرنسية شارل رو ، رئيس شركة قناة السويس عام ١٩١٠ فى كتابه المهم «جذور الحملة الفرنسية» ، وما نشره بعد ذلك عام ١٩٢٩ بتكليف من الملك فؤاد عن مشروع آخر لغزو مصر أيام الملك لويس السادس عشر ، ونشره المعهد المصرى ـ بالفرنسية ، فإن كشف تاريخ وجذور تلك المشاريع العديدة قبل حملة بونابرت ظل ومضات أو اشارات فى بطون الكتب أو ظل رهين دور المحفوظات والوثائق والمكتبات دون أن يتوافر عليها دارس مصرى بالكشف والتفصيل والتحليل .

ذلك أن فكرة غزو مصر أقدم كثيراً من نابليون فى عهد حكومة الديريكتوار . وتعود إلى منتصف القرن السابع عشر . وهى أيضاً ليست فرنسية فقط ، لأن هناك مشروعاً آخر روسياً ومشروعاً يونانيا كان دافعهما هو الصراع العنيف مع الإمبراطورية العثمانية . وكانت فكرة

غزو مصر هى الحل الاستراتيجى فى تلك المشاريع جميعـــاً . لأن ضرب تركيا فى مصر هو المفتـــاح الاستراتيجى السحرى ، لأن القاهرة فى النهاية ستكون الموئل الأخير لو تراجعت تركيا من اسطنبول» .

وهكذا لم تعد مشاريع غزو مصر إلى نهاية القرن الثامن عشر لأنهـــا جاءت مبكرة فى منتصف القـــرن السابع عشر . وسوف نجد الرحالة الفرنسى الأب كوبان فى كتابه عن «الحروب الصليبية» يدعو إلى نفس الفكرة فى منتصف القرن السابع عشر ، كما نجدها فى مقترحات بعض القناصل الفرنسيين فى البلاط العثمانى بالآستانة مثل دنيس دى هاى ، والماركيز دى نوانتيل وجير رواق . ولكن أخطر هذه المشاريع مختلفة المصادر كان هذا المشروع الذى قدمه المفكر الألمانى ليبنيز ، وظل يلح به فى مذكراته وخطاباته . وكانت أهم هذه «المذكرات» تلك الوثيقة التى كتبها باللاتينية مرة ، وبالفرنسية مرة ، ملخصة مرة وضافية أخرى . ففى هذا المشروع يتحول ليبنيز . من مفكر يدعو إلى التوفيق بين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، وبين أرسطو وديكارت ، إلى داعية أهوج

لفكرة عسكرية ، جعلته يعكف على دراسة مبررات الحملة، وظروفها السياسية والاجتماعية ، بل ودراسة الشواطىء المصرية ، والمسافة بين فرنسا ومصر، وسهولة الانتقال بالبحر ، ومدة الانتقال ، وعدد التحصينات ، وغير ذلك من عوامل «تقدير الموقف» التى يعكف عليها العسكريون بالضرورة .

وقد كان الفيلسوف الألمانى جوتفريد فيلهلم ليبنيز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) نابغة برزت مواهبه الفكرية المبكرة منذ الخامسة عشرة ، فى رسالته «مناقشة ميتافيزيقية لمبدأ الفرد» ، والتى قدمها لجامعة لايبزج . «وكان والده أيضا أستاذا لفلسفة الأخلاق فيها» ثم عكف ليبنيز الشاب ثلاثة أعوام على دراسة الفقه والتشريع فى جامعة يينا ، ونشر بحثاً عن «التربية» لفت إليه نظر أسقف مدينة ميتز . فتبناه الأسقف . وأصبح بعدها لسان حاله فى «البحث عن الأساس العقلى للدين المسيحى، بحيث يقبله البروتستانت والكاثوليك معاً» . ولا تهمنا الآن مكانته العلمية والفكرية فى ابتكار حساب التفاضل ، أو دوره فى الفيزياء فى بحثه

عن قانون «حفظ الطاقة» ، أو ربطه بين «المادة والحركة» ، أو معركته التى تحولت إلى صراع شخصى مع إسحاق نيوتن ، حتى أن برتراند راسل يعتبره مؤسس المنطق الرياضى ، لأن ما يهمنا هو الجانب السياسى والعقائدى والعسكرى أيضاً فى مشروعه الخطير لغزو مصر عام ١٦٧٢ .

فقد بدا نبوغه ، واشتد طموحه ، ووجه رسائله ـ على عادة مفكرى عصره ـ إلى بطرس الأكبر يطالبه باعتماد الثقافة الغربية فى روسيا ، ووجه رسائله إلى ملك انجلترا لإعادة ترتيب أوربا ، ولكن خصوماته العنيفة مع الفيلسوف إسحاق نيوتن أصابت علاقته بانجلترا بالجفوة والصد والمقاطعة . وعقد ليبنيز الآمال الكبيرة على أقوى ملوك أوربا حينذاك وهو لويس الرابع عشر أو «الملك الشمس» صاحب قصر فرساى الشهير ، وصاحب الفتوحات العديدة داخل أوربا صراعاً مع أسبانيا وهولندا وانجلترا . ولم تكن فرنسا «القارية» قد انتهت إلى خاتمة حروبها الأوربية حتى تبدأ فرنسا «البحرية» شوطاً جديداً وراء

البحار ، وعبر البحر الأبيض . وكان كولبير أول وزير لمالية فرنسا يدرك أن ثروة المنافسين انجلترا وهولندا مصدرها «التوسع البحرى» ، ولذلك عكف على بناء الأساطيل الفرنسية . ولكن ذلك لم يكتمل تماماً فى عهد لويس الرابع عشر ، ولذلك استجاب لويس الرابع عشر إلى الماركيز دى لافوا وزير حربيته الذى كان يأمل استخدام مهارته فى التنظيم العسكرى لتنعقد الزعامة لفرنسا على غربى أوربا أولاً .

وكان يكفى فرنسا ـ فى هذه المرحلة ـ الحصول على مزيد من الامتيازات فى الإمبراطورية العثمانية ، تجاريا وسياسياً ، لأن فكرة تفكيك الإمبراطورية نفسها ، وهى التى ألح عليها دعاة غزو مصر وعلى رأسهم ليبنيز لم تكن قد دقت ساعتها بعد .

وكانت فرنسا «البرية» مشغولة بأوربا لتنعقد لها الزعامة والمكانة ، ولم تكن قد أعدت بعد أسطولها الذى يستطيع نقلها من البر إلى البحر فى صراع لا يرحم مع انجلترا . وكان صراعها مع هولندا وأسبانيا فى بؤرة

الاهتمام . ولذلك اعتبر لويس الرابع عشر مشروع ليبنيز بعثا لخطة لويس التاسع «الصليبية القديمة» ولم تعد هذه الخطة مناسبة أو كما قال سكرتير الملك ، الدوق دى بومبونيه فى برمتيه المؤرخة ٢١ يونيو ١٦٧٢ :

ـ « لم تعد على الموضة» !

وقد انتهى طموح ليبنيز السياسى إلى الإفلاس ، وخاصة بعد وفاة راعيه أسقف ميتز ، فانتهى إلى أن يصبح مجرد أمين مكتبة فى هانوفر ، فى دوقية برنشفيج من عام١٦٧٦ حتى وفاته عام ١٧١٦ ، وبعد أن كان أول رئيس ومؤسس لأكاديمية برلين للعلوم ، لم يشيع جثمانه سوى عضو واحد من أكاديمية برلين ، كما تجاهلته الجمعية الملكية بلندن ، لأن الأحداث الأوربية اتجهت اتجاها آخر ، مختلفاً تماماً .

.. ومن هنا تأجل مشروع غزو مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى نهاية القرن الذى يليه . والمؤكد من الوثائق المنشورة مع هذا الكتاب أن القائد العام إدوار مونيتيه قد رفع إلى القنصل الجنرال بونابرت نص مشروع

ليبنيز ، وكان مودعاً فى مكتبة هانوفر ، وفيه يتحدث عن «وحدة المصالح» على حد تعبيره بين الدول الأوربية والتى عليها أن تترك الحروب فيما بينها لتلتفت إلى مهمة أخطر . بل واسهل ، وهى ضرب الامبراطورية العثمانية بالاستيلاء على القاهرة .

والمؤكد أيضاً أن نص «الوثيقة المشروع» كان فى حوزة العالم جاسبار مونج ، أحد كبار علماء الحملة الفرنسية ، وفى إحدى الوثائق المحفوظة فى المعهد الفرنسى ، والمنشورة صورتها مع هذا الكتاب بتاريخ ٣ يوليو ١٨١٥ ما يثبت أن العالم مونج قد أودع الوثيقة فى مكتبة المعهد الفرنسى بباريس .

والوثيقتان تؤكدان إذن أن بونابرت قد اطلع على أفكار ليبنيز وأسباب دعوته إلى الحملة على مصر . وتجددت أسباب أخرى لحملة بونابرت التى انتهت إلى ثورتين فى القاهرة ، ثم انسحابه من مصر كما هو معروف .

وبعـد ..

فقد أسعدتنى كتابة هذه السطور لتقديم هذا الكتاب الذى ترجمه وقدمه الدكتور أحمد يوسف ، وهو من الباحثين العاكفين فى المكتبات الفرنسية . ويعمل فى مكتبة الأرسينال بباريس التى تجمع أوراقا مهمة للسان السيمونين الذى جاء مصر عام ١٨٣٥ أيام محمد على . وترجمة مثل هذه الوثائق الخفية أو المستبعدة عن أطماع وسياسات الدول الغربية ومفكرى الغرب يفيدنا دائماً فى تعقب الجذور الفكرية للمصالح والحملات ، بعيداً عما يكسوها من لمحة براقة أو لغة معسولة . وقد حصل الدكتور أحمد يوسف على درجة الدكتوراة من جامعة السوربون عن رسالة كان عنوانها : « صورة مصر فى الخيال الفرنسى» . وهو بذلك مؤهل تماماً لكشف مزيد من الحقائق عن طريق الوثائق . ولا يخدم الحق غير الحقيقة .

كامل زهيرى

مقـــدمة

هذا المخطوط - الذى أقدمه للقارىء العربى لأول مرة - يحفل بالغرائب سواء فيما يتعلق بظروف كتابته أو فيما يتعلق بظروف ترجمته ، وقبل أن أصطحب القارىء فى رحلة قصيرة بين ألمانيا وفرنسا فى القرن السابع عشر ليرى كيف خرج إلى النور هذا المخطوط ، وكيف ولماذا أقدم الفيلسوف «ليبنيز» وهو الذى لم ير مصر فى حياته ، بل لم يكن قد رأى فرنسا قط حتى لحظة قدومه إلى باريس لعرض مخطوطه ، أو خططه لغزو مصر والشرق.

أود أن ألفت نظر القارىء إلى أن ما بين يديه اليوم كان لأسباب سياسية خطيرة ممنوعا من الخروج إلى الجمهور ليس فقط العربى بل الفرنسى أيضاً ، وأن ما بين يديه اليوم سيفتح له أبواباً واسعة لفهم حقيقة ما يجرى اليوم فى رقعة الشطرنج الهائلة المسماة «حوض المتوسط» أو ما نسميه اليوم بتعبيرات مختلفة الشمال والجنوب أو الشرق والغرب أو بشكل أقرب إلى روح المصطلحات «الاسلام والمسيحية» .

إن أهمية هذا النص هو انه نص سياسى بالدرجة الأولى ، لكنه مشبع من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة بالخلفيات الدينية

والفلسفية والتاريخية التى حكمت العلاقات بين الشرق والغرب ، والمحرك الرئيسى لكل من يأتى من الشمال ولكل ما يحدث فى الجنوب .

أهمية هذا النص تنبع أيضا من أنه معالجة سياسية مبكرة جداً لمشكلة صراع القوى فى أوربا وما نتج عنها من مشكلة السيطرة على أسواق التجارة العالمية آنئذ ، ثم تعقيدات ولادة العصر الحديث فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وما نتج عنها من تطور هائل فى تطور العلاقات فى النسيج الاجتماعى نتيجة ظهور الطبقة البرجوازية والتجار فى المدن الكبرى والموانىء على وجه الخصوص .

وقد واكب ذلك تطوراً كبيراً فى التناول الفلسفى والأدبى للسياسة والتاريخ بشكل عام ، مما مهد فى القرن اللاحق لظهور ما يعرف بعصر «التنوير» .

لاشك أن «ليبنيز» كان ببصيرة الفيلسوف واعيا بكل هذا ، وما كان مشروعه إلا تعبيرا عن قلق فلاسفة هذا الزمان حيال تطورات الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أوروبا أواخر القرن السابع عشر . ونظن أنهم كانوا على حق ، فالقرن الثامن عشر شهد تطورا هائلا فى العلوم السياسية والاجتماعية نتج عنه الثورة الفرنسية الكبرى التى زلزلت أوروبا كلها ، فما أن أقبل

الزلزال الثانى الذى يعرف باسم الثورة الصناعية حتى برز وجه الشرق من جديد بثرواته وحيويته وتاريخه الروحى .

من هنا تنبع أهمية هذا المخطوط لأنه فى آن واحد مشروع حضارى هائل لسيطرة الغرب على مقدرات الشرق ، ولانه تحليل للعوامل المادية والروحية الكامنة فى جسم الشرق والتى تجعل منه دائما أداة تهديد ليس فقط لمصالح الغرب ، بل لوجود الغرب نفسه وربما كان من الأفضل قبل الدخول فى الترجمة أن أعطى القارىء نبذة عن نشأة فكرة غزو مصر .

ثم نبذة عن حياة مؤلف المخطوط وعن المخطوط نفسه ، وكيف وصل إلينا فى حالته الراهنة بعدها أترك للقارىء تقدير النص ، ولا أقول الحكم على النص ، فنص بهذه الأهمية التاريخية يجب أن يوزن بمعيار دقيق كمعيار الذهب .



لويس الرابع عشر ملك فرنسا الملقب بـ « الملك الشمس » والذى وجه اليه ليبنيز مشروعه لغزو مصر .

نشأة فكرة غزو مصر في أوربا
بين الحلم والتطبيق

تعود الخطوط الأولى التى رسمها الأوربيون لصورة مصر فى ذاكرتهم إلى كتابات الرحالة الأغريق الذين ساحوا فى وادى النيل إبان ازدهـار حضارتهـا وفـنونها ومنهم بالطبع كتاب هـيرودوت المسمـى EUTERPE (١) .

وبالطبع تأتى أهمية هذه الانطباعات الأولى عن مصر من جهة أن الحضارات اللاحقة أفادت من الكم الهائل من المعلومات التى قدمها هؤلاء الأغريق عن حضارة مصر وشعبها، كما استخدمت، بل تستخدم حتى اليوم اللغة والتعبيرات والمصطلحات والتسميات التى أطلقها هؤلاء على أساليب وطرائق الحياة فى حضارة وادى النيل.

---

(١) الكتاب هو الجزء الثانى من مجموعة كتب كرسها هيرودوت لرحلاته وللحروب اليونانية الفارسية ، ويعد كتابه عن مصر أهمها على الإطلاق لما يحويه من معلومات هائلة استقاها من اليونانيين أنفسهم ومن المصريين فى مصر ، فإذا ما أتى شامبليون يفك بعبقريته الفذة طلاسم هيروغليفية أحجار المعابد حتى أضيف مصدر ثالث تستقى منه البشرية كل يوم أخبار ومعلومات عن حضارة ذلك الزمان فى مصر .

على أن هذا لم يكن إلا غيضا من فيض ، فالأوربيون ظلوا أكثر من خمسة وعشرين قرناً يستقون معلوماتهم عن حضارة مصر القديمة من مصدرين لا ثالث لهما ، كتابات الرحالة الأغريق من ناحية ، وقصص الأنبياء فى الإنجيل خاصة فيما يتعلق بموسى ويوسف عليهما السلام .

ولست فى حاجة هنا فى هذه العجالة أن أحدث القارىء عن دور الحضارة الهلنستية أى زواج حضارة الشرق بالغرب ، وبيت الزوجية لم يكن إلا هذا العش الصغير المضىء الذى اسمه الإسكندرية .

وألفت نظر القارىء هنا إلى أن تعبير «زواج» ليس شطحة لغوية من عند كاتب هذه السطور ، بل إنه تعبير وجد مع ميلاد الحضارة الهلنستية وظل يراود أحلام الفلاسفة والمفكرين القرن تلو القرن من عصر فلاسفة الإسكندرية حتى عصر أتباع السان سيمونيين فى فرنسا فيما سيجد القارىء تفصيلا له لاحقا .

بعد اليونان احتل الرومان مصر ، ومع ظهور المسيحية كانت صحارى مصر وجبالها موئلاً لأتباع الدين الجديد ، ثم مدرسة ، ومركزا للرهبانية .

وفى هذا العصر حدث أن الجيش المصرى احتل فرنسا أو ما

يعرف بأرض الغال ، وقبل أن تزول دهشتك أيها القارىء العزيز فإن الرومان لم يكن لديهم القوة البشرية الكافية لحفظ الإمبراطورية المترامية الأطراف التى أسسوها فكانوا يستعينون بوحدات كبيرة من جيوش البلدان المفتوحة كحاميات فى بلاد أخرى ، من هنا كان قرار روما بأن تكون بلاد الغال فى عهدة الجيش المصرى [١] والتى كانت قد تمركزت وحدات منها فى إيطاليا .

من هذا العصر أيضا خرجت إلى العالم قصص مصرية خلدها التاريخ كما خلدتها الآداب والفنون ، من كليوباترا وأنطونيو إلى قصص المسيحيين الأوائل ومنهم أسطورة هيباتيا وأساطير وقصص عن حياة الأنبياء فى مصر وعلى الأخص يوسف وموسى والمسيح .

بالطبع ارتباط أرض ما بأديان وقصص أنبياء يدفع بهذه الأرض إلى قلب ذاكرة الانسان وإلى عمق أعماق روحه ، فالأرض التى تربى فيها موسى وقاد فيها شعبه فى رحلة الخروج العظيم ،

---

(١) أنظر مقدمة الكتاب القيم لأنور لوكا VOYAGEURS ET ECRIVAINS EGYPTIENS EN FN FRANCE AU XIX `eme SIECLE الصادر عن المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية بالقاهرة الصفحات ١٢ ، ١٤ ، ١٥ .



لويس التاسع عشر بـ «سان لويس»

لوحة فرنسية تصور نزول جيش لويس التاسع ملك فرنسا الى ساحل دمياط ..

(لوحة من القرن ١٩ موجودة بمتحف فرساى)

والأرض التى كانت ملاذاً للمسيح ثم مركزا للمسيحية قبل أن تصبح منارة للإسلام ، هى لاشك أرض لها صورة محفورة فى ذاكرة الانسان ، وهذه النقطة بالذات ستكون فى العصور التالية الوجه الآخر للعملة لكل ملك أو قائد عسكرى وغطاءً روحياً لحركات سياسية وعمليات عسكرية واسعة النطاق وتعبير «الطريق إلى القدس يمر عبر القاهرة» أو بشكل أدق «إن مفاتيح القدس فى القاهرة LES CLES DE JERUSALEM SONT AU CAIRE أطلقه جان دى بريان JEAN DE BRIENE ملك القدس وأول فرنسى صليبى يغزو مصر قبل لويس التاسع وقصة فشلة معروفه ، فجيوش الملك الكامل تركته يحتل دمياط عام ١٢١٩ ثم يتوغل داخل الدلتا، وقرب القاهرة سحقته الجيوش المصرية سحقاً، ورغم هزيمته فإن فكرة بريان باسترجاع القدس والقضاء على الإسلام من جه مصر صار درسا لكل استراتيجى فى الغرب، ولا عجب أن يكرر لويس التاسع المحاولة ولم تنقض ثلاثون عاماً على هزيمة بريان ، وكما هو معروف رأى لويس التاس المصير نفسه ، بل إنه هو نفسه أسر فى دمياط ، وبعد فك أسره وعودته لفرنسا ظلت فكرة العودة إلى مصر تسيطر عليه ، بل أنه أعد حملة صليبية جديدة على مصر هى الثانية والأخيرة فى سلسلة الحملات الصليبية على الشرق ، وكانت وفاة الملك بالطاعون فى تونس



لوحة فرنسية أخرى تصور أحد المصريين يتحدى لويس التاسع فى سجنه بالمنصورة ..

(لوحة أخرى من القرن ١٩ بمتحف فرساى)

عاملاً مهماً فى إجهاض الحملة وعودتها قبل وصولها إلى مصر .

من هذه الفترة خرجت للعالم صورة جديدة عن مصر ، صورة عربية إسلامية مقترنة أحيانا بصلاح الدين ، وأحياناً بقصص لويس التاسع فى مصر [١] ، وخصوصاً قصص ألف ليلة وليلة وقصص السلاطين والحريم وهارون الرشيد ...... إلخ .

ومن هذه الفترة أيضا استوحى أدباء وفنانو الرومانسية الفرنسية والغربية بشكل عام جل فنونهم من شاتوبريان إلى نرفال ومن برليوز وسان سانس فى الموسيقى إلى دولاكروا فى التصوير.

بإختصار يمكن القول أن العصور الوسطى بحروبها الصليبية والاتساع فى التجارة بين موانىء المتوسط التى أعقبتها أنتجت عن الاثنين ازدهارا تجارياً وثقافياً معروفاً فإذا ما احتل العثمانيون مصر عام ١٥١٧ صارت مصر مجرد ولاية عثمانية ، لكن ليست ككل الولايات ، وذلك أن الباب العالى ، كان يرى فى القاهرة معقلاً

---

(١) على سبيل المثال ما يروى أن المماليك وبعد مقتل طوران شاه عرضوا على الملك الأسير حكم مصر شرط اعتناقه الإسلام وجنوده ، الواقعة يرويها المؤرخ «جوانفيل» الذى صاحب الملك فى حملته على مصر ، لكن وقائع أخرى وشهود أخر ينفون هذه الواقعة .

أخيراً له إذا ما أتى يوم واحتلت جيوش أباطرة الروس فى الشرق أو جيوش أباطرة النمسا فى الغرب اسطانبول (١) .

فى هذا الوقت بالذات ، وبالتحديد عام ١٥٣٥ أسفرت ضغوط فرانسوا الأول ملك فرنسا على السلطان سليمان القانونى عن منح فرنسا ورعاياها ما أطلق عليه لأول مرة بـــ «الامتيازات» PRIVI-LEGES داخل أراضى الدولة العثمانية .

ولم يمض القرن السادس عشر حتى ظهرت فى الإسكندرية وموانىء المتوسط الشرقية أول مراكز تجارية رسمية لفرنسا فيما يعرف باسم كونتوار CONPTOIR.

هذه المراكز ستتحول فيما بعد فى القرن السابع عشر إلى مكاتب لقناصل ملوك فرنسا . وهذه الفترة شهدت أيضا التوسع فى إرسال بعثات المبشرين والمستكشفين الفرنسيين لمصر (٢) .

وبالطبع كان هذا القرن – كما هو معروف – قرن المنافسات

---

(١) راجع فى هذا مذكرات نوبار باشا الصادرة بالفرنسية فى لبنان عام ١٩٨٣ عن دار نشرLIBDU LIBAN ، وليبنيز نفسه يردد هذه الفكرة عدة مرات فى مشروعه .

(٢) راجع فى هذا الكتاب القيم بالفرنسية لـ جان مارى كاريه (الرحالة والكتّاب الفرنسيون فى مصر) وبالعربية أنظر آخر ما صدر عن دار مصر النهضة سلسلة مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر «مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» للدكتورة إلهام محمد على ذهنى . (عن الهيئة المصرية العامة للكتاب)

الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا ، ليس فقط فى العالم الجديد ، بل فى العالم القديم أيضا ، وكانت ولايات الأمبراطورية العثمانية وعلى رأسها مصر وبعض أقاليم الشام قد بدأت تلفت أنظار الفرنسيين على نحو خاص .

فى هذا القرن أيضاً تصاعدت قوة القناصل فى ولايات الأمبراطورية وتحول معظمهم من حماة للتجارة الأوربية إلى جواسيس على ولايات الدولة العثمانية ، ويشهد على ذلك هذا الكم الرهيب من التقارير فى كل شئون الحياة تقريبا التى أرسلها قناصل فرنسا فى هذه الفترة إلى ولاة الأمر فى باريس ، هذه الوثائق مازالت محفوظة فى مكتبات وأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية .

وعندما اندلعت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) تحولت المنافسة الاستعمارية التقليدية بين انجلترا وفرنسا إلى صراع مرير بين انجلترا وحلفائها والجمهورية الفرنسية الوليدة . وعندما أفلح الفرنسيون فى دحر جيوش الحلفاء أيقنوا أن عدوهم الرئيسى هو انجلترا ، وأن السبيل إلى القضاء عليها يكمن فى قطع السبيل بينها وبين أهم مراكز تجاراتها فى العالم وهو الهند .

وكما يعرف القارىء فإن مشروع الحملة الفرنسية على مصر هو أيضا حلم شخصى لنابليون الذى كان يريد السير على خطى

الإسكندر الأكبر والاقتداء بيوليوس قيصر ، هنا تجمعت لدى القائد الفرنسى تقارير وخرائط ومذكرات الرحالة والقناصل الفرنسيين في مصر طوال القرون السادس والسابع والثامن عشر.

حول هذه النقطة بالذات أريد أن أستوقف القارىء العزيز إلى واقعة فى غايةالخطورة ، ذلك أن نابليون كان يحبذ فكرة ضرب انجلترا عن طريق فرض حصار بحرى عليها ، وكون بالفعل جيشاً جراراً لهذه المهمة، إلا أن حسابات حكومة الإدارة « DIREC-TOIR» كانت مخالفة لحساباته ، ذلك أنهم كانوا يريدون التخلص منه بأى طريقة ، لانه أصبح بعد انتصاراته الساحقة فى إيطاليا رمزاً لقوة الثورة الفرنسية وأصبح طموحه السياسى خطراً على مستقبل هؤلاء .

وعندما اقترح عليه «تاليران» مشروع الحملة على مصر لضرب انجلترا رفض نابليون رفضا شديداً ، وقد كان يدرك مافى سرائر زملائه .وفجأة نجد أن القائد الشاب يوافق على قيادة جيش عرمرم إلى مصر .

وحتى وقت قريب ، لم نكن نعرف على وجه الدقة السبب أو الأسباب التى زرعت بذور الشك لدى انجلترا بخصوص نوايا فرنسا ، وكما هو معروف فإن الأسطول الانجليزى سبق بعدة أيام فقط الأسطول الفرنسى إلى الإسكندرية وذلك لتحذير واليها السيد

محمد كريم من احتمال تعرض مدينته لغزو فرنسي .

كان هناك إذن ما يشير إلى احتمال إطلاع الانجليز ولو بشكل غير مباشر على النوايا الفرنسية . وعندما نشرت الصحف الانجليزية في عام ١٨٠٣ - أي بعد عامين من رحيل الحملة عن مصر - خبراً مفاده أن نابليون سرق من ليبنيز فكرة غزو مصر ، هنا فقط خرج مخطوط ليبنيز إلى النور وبدأت الانظار تتجهه إلى مكتبة هانوفر للبحث عنه ، لكنه كان قد اختفى .. ذلك أن الحاكم الفرنسي لهانوفر كان قد أرسله لنابليون منذ وقت طويل .

وسنعود بالطبع إلى هذه النقطة عندما نتحدث عن قصة المخطوط نفسه ولنر الآن ما حدث للأسطول الفرنسي في عرض مدينة الاسكندرية .

فما أن احتلت جيوش نابليون المدينة حتى عاد الأسطول الانجليزي بقيادة نيلسون ودمر الأسطول الفرنسي عن آخره .

كانت الكارثة هائلة بكل المقاييس ، فنابليون وجيشه الجرار ومطبعته وعلماؤه وفنانوه أصبحوا سجناء وادي النيل ، فشرعوا ينظمون الحياة فيها كي تناسب إقامتهم لفترة لا يعلمون مداها .

فنظمت شوارع ، وأزيلت أحياء ، وأنشئت دواوين ، وطبعت جرائد ومنشورات ، وعرضت تمثيليات ، وأنشئت معامل وورش فنيه ... إلخ .

وكما نقول فإن مصائب قوم عند قوم فوائد ، فالأنشطة الفرنسية الهائلة شدت انتباه كل المصريين من عامة وعلماء أزهر فراحوا يتقربون تارة ويبتعدون تارة من جيش الفرنسيس على نحو ما يصفه العملاق الجبرتى فى كتابه المهم «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» .

على أن كل هذا معروف ولاشك للقارىء ، ما نريد أن نلفت نظره إليه هو أن هذا الجيش الفرنسى كان مكوناً من ضباط وجنود وعلماء كانوا فى معظمهم أعضاء فى جماعات ماسونية فرنسية وإيطالية وألمانية . وكانوا بعد نجاح الماسونية فى اشعال الثورة الفرنسية فى حماس شديد لنشر أفكار الثورة خارج فرنسا وكان هؤلاء عشاق لتاريخ مصر وحضارتها وخاصة ما قدمته للبشرية فى مجال علاقة الانسان بالانسان وبالكون والطبيعة بشكل عام .

كانت فكرة الماسونية المصرية قد بدأت تجذب فى أوربا حتى أواخر القرن الثامن عشر كُتَّابا وفلاسفة كبار ، وبدأت تتكون دوائر وحلقات وجمعيات تحمل اسماء وادى النيل ، ممفيس ، مصر اييم [1] .... الخ . على نحو ما فصلناه فى أطروحتنا للدكتوراة.

---

١ – مصراييم تعنى «مصر» باللغة العبرية وهذا يفسر لنا بالطبع وجود عدد هائل من اليهود فى الدوائر الماسونية ، وقد عرضنا لهذا على نحو مفصل فى أطروحتنا للدكتوراة التى قدمناها للسوربون فى يونيو ١٩٩٢ .

على أية حال كان وسط هؤلاء الضباط والعلماء والوجهاء الفرنسيين فى مصر ، ديليسبس الشهير ليس صاحب فكرة قناة السويس بل أبيه «ماتيو ديليسبس» وكان هذا أحد الماسونيين المصريين [1] ، وكان قد عمل قنصلاً لفرنسا فى الشام ثم لازم دوروفيتى DOROVETTI قنصل فرنسا فى الإسكندرية زمناً طويلاً قبل أن يصبح أكبر صديق لضابط ألبانى صغير سيلمع اسمه بعد عدة سنوات واسمه محمد على .

كانت أفكار هؤلاء الماسونيين تتركز حول تحضير وادى النيل وإعادته إلى صدارة العالم حضاريا وفكريا ، ثم تأصيل كل أفكار البشرية من خلال تفسيرها تفسيراً فرعونيا . ودون الحكم على مشروعهم فى مصر يهمنا القول أن الجيش الفرنسى خرج من مصر وكانت الإسكندرية قد شهدت ميلاد أول محفل ماسونى بها فى أواخر عام ١٨٠٠ ، فما أن أقبل القرن التاسع عشر حتى انتشرت هذه المحافل في كل مصر خاصة في القاهرة والإسكندرية.

وعندما مات ماتيوس ديليسبس شمل محمد على الحاكم الجديد لمصر ابنه الشاب «فرديناند» بالعطف وجعله المربى الخاص

---

(١) بالطبع نقصد القول المستمصرين لا المتمصرين .

لابنه سعيد (١) .

نعود إلى فرنسا لانه فى هذا الوقت حوالى ١٨١٥ - ظهر فى فرنسا تيار فكرى جديد تحول إلى مدرسة كبيرة ثم جماعة ثم ما يشبه الجيش من المفكرين والعلماء والفنانين والصحفيين يدعون (السان سيمونيون) وهم اتباع المفكر الفرنسى والمغامر سان سيمون .

كانوا فى معظمهم من خريجى مدرسة البوليتيكنيك الشهيرة ، وكانوا يؤمنون حتى الجنون بأفكار الثورة الفرنسية ونابليون (٢) ، وكانوا يريدون تطبيق أفكار الحضارة والعلوم الحديثة على أهم أرض قديمة وأهم حضارة قديمة وهى مصر .

وقد جـــــاء وا إلى مصــر بعد سلسلة من الفضائح فى فرنسا

---

١ - كان سعيد مشهورا بوزنه الثقيل والسمنة المفرطة مما أقلق محمد على ، فعهد إلى ديليسبس التربية البدنية والثقافية لابنه ، وكان سعيد عاشقا حتى المرض لأطباق «المكرونة» فما كان أن حرمها أبوه عليه ، إلا أن ديليسبس كان يسمح له بالتهام بعض الأطباق خلسة خلال الليل ، وبالطبع أصبح ديليسبس بفضل هذا أقرب المقربين إلى روح وعقل سعيد ، فما أن عرض عليه مشروع القناة الذى رفضه محمد على بعناد شديد حتى وافق .

٢ - لهم فى هذا العبارة الشهيرة «ما أسسه نابليون بالسيف سنتمه نحن بالمصانع» وبعدها ردد بلزاك قولته الشهيرة فى حب نابليون «ما أسسه بالسيف سأكمله بالقلم» .

وتركيا واليونان واستقبلهم محمد على بقليل من الحماس ، وشرعوا يقيمون الخطط لإعادة الحضارة إلى مصر ، خطط لمستشفيات ، خطط لجامعات وخطط لمدارس فنون .... إلخ .

إلا أن محمد على رفض أغلب هذه المشاريع ووافق على مشروع سد القاهرة ، الذى يعرف اليوم باسم «القناطر» ثم بعض المدارس المهمة مثل مدرسة بولاق ومدرسة القصر العينى وكلها من تصميم وإدارة «السان سيمونيون» .

وعندما تقدموا بمشروع قناة السويس كان رفض محمد على قاطعا فعهدوا بخطط ورسوم وتقارير مهندسيهم إلى الدبلوماسى الشاب فرديناند ديليسبس ليقدمها إلى والى مصر الجديد سعيد باشا فوافق ديليسبس ولكنه قدم المشروع على انه من بنات أفكاره وحده وهكذا سجل التاريخ مشروع القناة على أنه من اختراع ديليسبس بينما هو فى حقيقة من أفكار مهندسى وعلماء جماعة «السان سيمونيون» .

كان هؤلاء يعتقدون أن مصر يجب أن تأخذ من فرنسا والغرب الحضارة التى أعطتها هى لهم قرونا طويلة [1] ، وأن مادية الغرب فى حاجة إلى روحانية الشرق .

---

١ - بالفرنسية بقول التعبير السان سيمونى «LOCCIDENT DOIT REdonner al egypte la civilsation qui lui Appar-tient»



الخديو اسماعيل آخر ملك مصرى يرتبط عاطفيا بفرنسا وبعلاقة خاصة بالإمبراطور نابليون الثالث ..

كان مشروعهم امتدادا للحلم القديم لنابليون ، وتطبيقا عمليا لأفكار الماسونيين ، وسعوا بكل قوتهم إلى الاقتراب من المصريين - على عكس الماسونيين - فأصبح لهم أصدقاء مصريين سيصبحون فيما بعد مؤسسى مصر الحديثة وعلى رأسهم الطهطاوى ومبارك وكثيرين غيرهما .

كانت إذن الأفكار التى اقترحها الطهطاوى وغيره من مفكرى القرن التاسع عشر ، أفكاراً فى جلها متأثرة بالمد السان سيمونى فى مصر وفرنسا على نحو ما تبينه الوثائق والمخطوطات الهائلة فى مكتبة الأرسنال والتى اعمل أنا بها شخصياً منذ فترة طويلة .

وبعد فتح قناة السويس وقفت انجلترا بالمرصاد لكل هذه المشاريع الرامية من وجهة نظرها إلى ربط مصر بفرنسا ، وانتهت القصة كما يعلم القارىء العزيز بالاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢ .

من الواضح إذن من خلال هذا العرض السريع أن الصورة التى بناها الفلاسفة والكتاب عن مصر اصطدمت بالفكرة التى كانت لدى السياسيين ، لان الأولى كانت مثالية والثانية مرتبطة بالمصالح وصراع القوى ، ولم تلتق الفكرتان إلا فى شخص واحد فقط هو نابليون ، كما التقت فى العصور القديمة فى شخص الإسكندر الأكبر .



الفيلسوف جوتفريد ويلهلم الشهير بـ ليبنيز

من هو ليبنيز
وماهو مخطوطه

ولد ليبنيز وليس ليبنيتز [1] فى ليبزج عام ١٦٤٦ لأسرة ميسورة وأب كان أستاذا للحقوق والفلسفة والرياضيات بجامعة المدينة. نفسها وبعد طفولة حافلة بقراءات فى كل العلوم والفنون وفى تاريخ الأديان، أذهل ليبنيز أساتذته باتساع علومه وتداخلها، وتنوع مصادر ثقافته وارتكازها على قراءات الأصول وبلغات مختلفة.

فما إن شب عن الطوق قليلا وأصبح طالبا نابغا بل وطالبا مشهورا أصبح مستشارا فى بلاط نبلاء عصره. ثم خالط ملوك أوربا وأصبح هؤلاء يستشيرونه فى أمور العلم، وطبقت شهرة ليبنيز الآفاق عندما اكتشف في الوقت نفسه مع نيوتن قانون

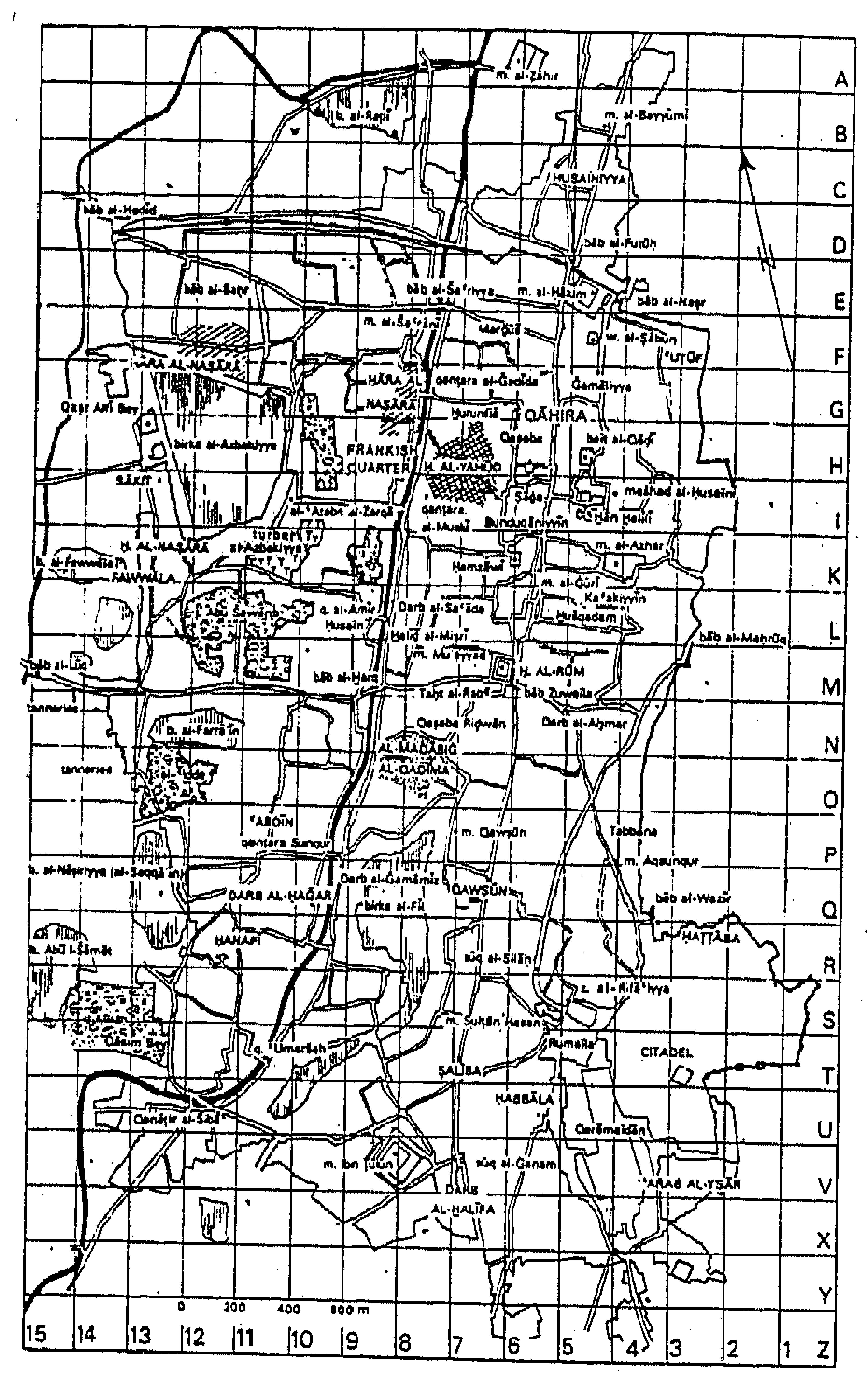
(١) لسنا هنا فى محل عرض أهم نظريات ليبنيز فى الفلسفة وهى فلسفة الجوهر الروحى أو الأحاد الروحى. MONADOLOGIE فى تفسير الحياة والكون وخلاصتها إن الفرد، والذرة الواحدة هى أصل الحياة، وأنه منفرد لا شبيه له ولا مثيل إلا فى العدد، وليس فى الجوهر. فإذا ماتكرر شبيهان منها فهما حتما فى الأصل من جوهر واحد.

حساب التفاضل والتكامل فى الرياضيات، ودخل فى صراع حاد مع الأخير من أجل إثبات حقه فى أسبقية الاكتشاف.

ثم أعلن مشروعه الضخم لإنشاء كنفدرالية أوربية مسيحية تتخلص بها أوربا من الحروب والصراعات السياسية والدينية التى تعصف بها منذ العصور الوسطى. وفي عام ١٦٧٢ توجه إلي باريس بعد أن ناقش معه أمير مايانس MAYENCE مايدور فى البلاد من شائعات عن عزم لويس الرابع عشر ملك فرنسا غزو هولندا.

هكذا شعر ليبنيز بأن خطته للوحدة الأوربية ستنهار بسبب الغزو الفرنسى لهولندا فألف مذكرة صغيرة يحث فيها الملك الشمسى على غزو مصر ووضع لها عنوانا AE- CONSILIUM GYPTIACUM ، وعندما وصل باريس أواخر ١٦٧٢ أستقبل استقبالا حافلا من قبل علماء الأكاديمية الفرنسية، بل أصبح عضوا بها، واستقر الفيلسوف بفرنسا مدة أربع سنوات صاحب خلالها فلاسفة فرنسا الكبار على رأسهم مالبرانش وباسكال وأرنو ARNAULD

وعندما تقدم بعرض مشروعه على الملك كانت جيوش فرنسا قد جاوزت الحدود فى طريقها إلى هولندا، بل أنه استقبل بفتور من قبل سكرتير الملك الدوق دو بومبونيه DE POMPONNE الذى



خريطة نادرة للقاهرة تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر .

كان فشل مشروع ليبنيز من ناحية ثم فشله في اثبات أحقيته في اكتشاف « حساب التفاضل » في الرياضيات على حساب صديقه القديم نيوتن سببا في النهاية الحزينة لحياة ليبنيز .



الفيلسوف والرياضي الانجليزي إسحق نيوتن

أبلغه رد الملك بأن هذا المشروع لم يعد على الموضة Ce Projct N'est Plus a'laMode depuis saint-Louis

لم ييأس ليبنيز بل أعاد صياغة مشروعه وكتبه مرة أخرى بالفرنسية لأن النسخة الأولى كانت باللاتينية، ثم أرسلها إلي الملك الشمس. لكن هذه المرة لم يكن وحيدا بل مدعوما برسائل من البارون «دى بوريمبورج» صديقه الحميم والوزير الكبير فى مستشارية مايانس، كما أرسل إلى بعض وزراء الملك خصوصا الدوق «أرنو دو بومبونيه» سكرتير الملك على نحو ما تبينه مخطوطات الرسائل المرفقة بملحق هذا الكتاب، ورغم رفض الملك للفكرة، فإن الفيلسوف استمر فى عرض مشروعه على أصدقائه وزملائه الفلاسفة فى كل أوربا إلا أن فشله فى إقناع لويس الرابع عشر بالمشروع، أصابه ببعض الإحباط فاعتكف أو عكف على نظرياته الرياضية وأخرج كما سبق القول نظرية جديدة هى «حساب التفاضل والتكامل» وذلك فى مجلة «أعمال الباحثين العلميين ACTA ERODITORUM عام ١٦٨٤ .

وبعد ثلاث سنوات ظهر كتاب «مبادىء الفلسفة الطبيعية» لنيوتن الذى أدى إلى ظهور خلاف مستحكم بين الفيلسوفين امتد بعد ذلك إلى أنصارهما وتحول إلى خلاف سياسى بين انجلترا وفرنسا، وتعقدت المشكلة أكثر عندما أصبح الأمير جورج، صديقه

من هانوفر، ملكا على بريطانيا عام ١٧١٤ ولم توجه الدعوة لليبنز ليكون فى معيته وحاشيته، وبالطبع كان السبب الرئيسى هو خلافه مع نيوتن، فحز ليبنيز حزنا شديدا وشعر بأنه أصبح معزولا عن الناس ومات بعدها بعامين من الحسرة والألم.

وبعد وفاته عثر فى مكتبته بمدينة هانوفر على نسخة ثالثة من المخطوط محررة باللاتينية ومزودة بتفاصيل كثيرة كانت على مايبدو محاولة منه للرد على منتقدى مشروعه من أنه تنقصه الدقة وينقصه خاصة عرض الوسائل التى يمكن بها تنفيذ مثل هذا المشروع.

والقارىء للرسائل الملحقة بهذا الكتاب يلحظ هذا النقد الليبنيز من خلال عرض الدوق دو بومبونيه لأسباب رفض الملك للمشروع فى رسالته إلى ليبنيز.

على أية حال هذا المخطوط اللاتينى، والموجود حاليا بمكتبة L,INSTILUT DE FRANCE ومعه مخطوطات المراسلات الخاصة بالمشروع هو الأساس الذى اعتمد عليه المترجم الفرنسى ڤاليه دو فيريڤيل والذى اعتمدنا عليه نحن بالتالى فى الترجمة المقدمة اليوم إلى قراء العربية الكرام. هذه الترجمة الفرنسية نشرت مرة واحدة عام ١٨٤٢ في مجلة indépendance في محيط علمي ضيق جدا، ثم لم تنشر بعد ذلك لأسباب كثيرة منها احتلال

فرنسا للجزائر بدءا من عام ١٨٣٢ ثم تورطها فيما يعرف باسم المسألة المصرية، زمن محمد على، ثم أسباب سياسية داخلية كثيرة لا محل هنا لعرضها ، باختصار خاف الجميع أن يصبح المخطوط مثيرا للجدل داخل وخارج فرنسا.

بالطبع كان لابد من بعض المشكلات الفنية فى داخل مثل هذا النوع من الترجمات المأخوذة عن ترجمات أخرى، مشكلات فى اللغة، مشكلات فى التعليق، ومشكلات فى الترتيب. غير أننا حذونا بدقة حذو النص الفرنسى فى الترتيب والتعليق، وكنا نعود دائما إلى الأصل اللاتينى فى حالة ما رأينا ضرورة لذلك على نحو ما سيلحظه القارىء خلال تتبعه لهذا النص.

وعند تعليقنا على الهوامش أشرنا إلى الحالات التى يكون فيها التعليق للمترجم الفرنسى، كما أرشدنا القارىء إلي بعض المراجع العاجلة والمباشرة، هذا عدا مثبت المراجع التى يمكن للقارىء المستزيد أن يعود إليه.

وبعد كل هذا، يبقى موضوع مخطوط ليبنيز فى حاجة إلي بحث جديد، ودرس جديد ذلك أن فى أعمال ليبنيز إشارات وكتابات مباشرة وغير مباشرة إلى مشروع الحملة على مصر والشرق، كما أن صدى الفكرة كان قد ترك ولاشك أثرا فى معاصريه من الفلاسفة، وهو الذى كان وثيق الصلة بهم، فكل هذا فى حاجة إلى

بحث وتنقيب على درجة عالية من الدقة والتأنى، وهذا لايقوم به فرد واحد بل لجنة من الفلاسفة والسياسيين والمستشرقين والمؤرخين.

فالكتاب الذى بين يديك أيها القارىء الكريم ليس إلا فاتحة على طريق البحث عن أصول علاقة الغرب بنا، فقد مر زمن طويل ونحن قابعون خلف الظواهر نبحث فى مظاهر تأثرنا بحضارة الغرب، وأشكال عدوانه علينا، ولا نبحث فى جذور ذلك ولا فى أسبابه الحقيقية التى عالجها فلاسفتهم منذ بدايات عصور النهضة وحتى اليوم.

إننا بهذه الترجمة نلفت أنظار الجميع إلى أن القضية قديمة وأن الملف مفتوح منذ قرون، فعلى القارىء النابه أن يقرأ بتمعن ليرى أن بعض تفاصيل مايحدث اليوم كان بالأمس البعيد محل اقتراحات وأخذ ورد وقرار يؤجل اليوم ولكنه ـ لا محالة ـ متخذ فى الغد.

مقدمة النص الفرنسي (١)

في عام ١٦٧١، أبدى لويس الرابع عشر رغبته في غزو هولندا، وأثار هذا ذعر أمراء امبراطوريته لما يعرفونه مسبقا من النتائج الوخيمة التي يمكن أن تنشأ عن هذ . وكان «فيليب دى شوينبورن» حاكم مقاطعة مايانس قد أصبح محل غضب الملك بعد أن كان حليفه، وكان يرى بعين القلق الأعصار الذى يستعد أن يضرب أوربا.

كان دى شوينبورن يبحث عن وسيلة لإجهاض محاولة الملك فعرض عليه مستشاره ووزيره البارون دى بوينبورج مشروعا أعده ليبنيز الذى تربطه به علاقات صداقة وطيدة، ويرمى إلى القيام بحرب صليبية جديدة ضد الشرق، تلائم احتياجات الحضارة الحديثة، وتلعب فيها فرنسا دورا فعالا، وتعتبر الظروف الحالية مواتية تماما للقيام بمثل هذا المشروع.

وقد اطلع ليبنيز صديقه دى بويمبورج على فكرته الذى فاتح بدوره الأمير دى شوينبورن في الموضوع الذى رآه مناسبا تماما لأغراضه فأرسل بالطرق الدبلوماسية الرسمية كتابا بهذا المعنى

(١) ليس هناك مقدمة في النص اللاتيني، بل تصدير على شكل ملخص على نحو ما يرى القارىء في الترجمة.

إلى ملك فرنسا بين له الفوائد والعظمة التى ستجنيها فرنسا والمجد الذى سيناله الملك شخصيا من تلك الحملة، كما يبين له عقم فكرة غزو هولندا، إلا أن خوف الأمير دى شوينبورن من احتمال رفض الملك للمشروع جعله لا يرسل للملك إلا الخطوط العريضة للمشروع، واحتفظ لنفسه بالتفاصيل ووسائل تنفيذ الحملة لعرضها على الملك فى حالة موافقته عليها فقط.

وفى هذا الصدد كلف ليبنيز بكتابة نصين لمشروع واحد بالفرنسية والآخر باللاتينية، وبينما كان الجميع فى مايانس ينتظر رد الملك، حسم هذا الأخير القضية بالزحف على هولندا.

صدق إذن حدس الأمير، ولم يضف ليبنيز شيئا إلى مشروع أصبح الهدف منه مستحيلا، ثم جاءت الوفاة المفاجئة للبارون دى بويمبورج والأمير فيليب دى شوينبورن ككارثتين متتاليتين الأولى فى ديسمبر ١٦٧٢ والثانية فى فبراير ١٦٧٣ لتجعل الأمل فى مشروع ليبنيز شبه معدوم.

وفى دراسة قيمة أعدها العالم الألمانى الدكتور جوهراور GUHRAUER ، سنعود إليها لاحقا، ركز فيها على أهمية أن ليبنيز حرص على ألا يعطى للملك فى البداية إلا الخطوط العريضة الغامضة وذلك لسببين. أولا، خدمة مصالح دوقية شوينبورن بإلهاء لويس الرابع عن نشاطاته الخطرة، وذلك بإطعامه ضحية أخرى

فى بلاد بعيدة، وقد أصبح هنا مستحيلا كما رأينا لأن قرار الملك المفاجىء جعله غير ذى قيمة، أما السبب الثانى، فهو هدف أكبر وأهم وهو مزج الحضارتين الغربية والشرقية فى بوتقة واحدة.

هذا الهدف الأخير عمل من أجله ليبنيز ودافع عنه زمنا طويلا بنشاط وكد لا يخرجان إلا من رجل مثله.

ومما يدفعنا للإعتقاد فى هذا وجود مخطوط ثان بالفرنسية على شكل رسالة موجهة إلى لويس الرابع عشر (١) وفيها يشرح ليبنيز فكرته عن غزو مصر والوسائل التى يمكن اتباعها لإنجاز هذا المشروع، وكل هذا مفصل بطريقة دقيقة جدا.

ويبدو أن الدكتور جوهراور قد جهل وجود هذا المخطوط الذى نشر عام ١٨٤) بواسطة هوفمان HOFFMANNS ، صحيح أن نشر هذه الرسالة كان حافلا بأخطاء كثيرة خاصة فى لغته، كما أنه لا يحتوى على تاريخ النشر ولا اسم دار النشر وكل ما يمكن أن يعطى مصداقية وجدية لأى مطبوع علمى.

على أن هذه الرسالة التى تحمل فى محتواها أدلة دامغة على أنها من مخلفات ليبنيز ، لم يستطع جوهراور إثبات أنها لم تكن مع مجموعة الوثائق التى تسلمها الدوق أرنو دى بومبونيه سكرتير

---

(١) مذكرة ليبنيز إلى لويس الرابع عشر بخصوص غزو مصر... إلخ مقال نشر باريس دار نشر كارنو , ١٨٤٠

الملك وأصدر بعدها إيصالا بتسليم هذه المستندات، ففى برقية له بتاريخ ٢١ يونيه ١٦٧٢ يقول بومبونيه «............ لن أحدثك عن مشاريع الحروب الصليبية لأنك تعلم أنها لم تعد على الموضة منذ زمن سان لويس»..

على أية حال، يبدو أن هذه الوثيقة لاتوجد فى أرشيف وزارة الخارجية وهو المصدر نفسه الذى استقى منه جوهراور الوثائق الأخرى التى اكتشفها.

هناك واقعة أخرى أكيدة أيضا، وهى أن ليبنيز لم يتوقف عند هذه الرسالة أو هذه المذكرة، فبين الأوراق التى اكتشفت بعد وفاته يوجد فى مكتبة هانوفر مخطوط ثالث باللاتينية ومكون من تقارير على شكل فصول تعرض لموضوع الحملة نفسه على مصر، وفيها فصل ليبنيز بدقة وتوسع أكثر من المخطوطين الأولين.

وهذا المخطوط هو الذى نقدمه مترجما للفرنسية لقارىء اليوم. وحسب جوهراور، لم يحظ المخطوط بشهرة فى ألمانيا إلا فى عام ١٧٩٧.

ومنذ هذا الوقت بدأ الموضوع يشغل الناس فى أوربا كلها، خاصة فى عام ١٨٠٣ عندما نشرت الحكومة البريطانية ـ التى لا تألوا جهدا فى سبيل الحط من شأن نابليون وإلصاق أحط التهم به ـ نشرة أصبحت اليوم نادرة فى فرنسا، وفيها تصف نابليون بالسارق وتتهمه بخطف فكرة ليبنيز غزو مصر.

ومع هذا فإنه فى التاريخ نفسه، كان المخطوط لايزال فى مكتبة هانوفر وهو التاريخ نفسه الذى أرسل فيه المخطوط إلى نابليون على سبيل الاستطلاع وهو ماتثبته الرسالة التالية التى وجدت فى مكتبة معهد فى فرنسا ونصها:

«القوات المسلحة بهانوفر»

هانوفر ١١ ترميدور السنة العاشرة للجمهورية الفرنسية من إدوار مورتييه قائد القوات إلى القنصل الأول.

سيدى الجنرال، أقترح ليبنيز العلامة الشهير على لويس الرابع عشر غزو مصر، وتوجد مذكرته حول هذه البقعة المهمة من الأرض على شكل مخطوط بمكتبة هانوفر.

أعتقد أنكم ستهتمون بقراءته، وتفضلوا ـ عزيزى الجنرال ـ بقبول احترامى وإعجابى.

التوقيع
إدوار مورتييه

والرسالة مصاحبة للمخطوط الذى نقدم له ترجمة فرنسية كاملة للمرة الأولى. هذا المخطوط الذى يضم الأفكار الرئيسية لليبنيز يتكون من ٥٠ ورقة من القطع الصغير، مرقمة ومكتوبة باللاتينية، لكن بأحرف فرنسية وبخط يد واضح أنها ألمانية.

وهناك واقعة أخرى تستحق الذكر، ذلك أنه فى عام ١٨١٥ كان المخطوط لايزال فى حوزة «مونج» الذى لم يكن فقط كاتم سر نابليون بل ـ وكما هو معروف ـ المسئول العلمى للحملة الفرنسية، وبهذه الصفة كان أحد قواد الحملة الفرنسية.

وبعد أحداث المائة يوم وانسحاب نابليون نهائيا من مسرح الأحداث أودع الأكاديمى الكبير المخطوط فى مكتبة معهدنا العلمى الكبير.

وبحوزتنا فى هذا الصدد مايثبت صحة هذه الواقعة، وذلك من خلال نص إيصال الاستلام الذى يوجد أسفل رسالة مورتييه التى عرضناها منذ قليل، وفى هذا النص يقول أمين المكتبة الذى استلم المخطوط.

أقر أنا الموقع أدناه أمين مكتبة المعهد باستلام مخطوط لم ينشر من قبل لليبنيز من مونج عضو المعهد العلمى.

باريس في ٣ يوليو ١٨١٥

شـــارل

هذا المخطوط ومعه بعض الوثائق الأخرى المتعلقة بالموضوع مازالت محفوظة بالمكتبة سالفة الذكر.

وفى عام ١٨٣٨ قدم الدكتور جوهراور أمام مجمع الأخلاق والسياسة بحثا قيما عن هذه الوثائق نشر فى دورية المجمع

مصحوبا بتقرير للسكرتير الدائم للمجمع الذى نشر بدوره فى المجلة نفسها (١).

ثم أخيرا نشر النص اللاتينى للمخطوط الذى قدم فى محاضرة جوهراور أمام المجمع مع تعليقات مستفيضة فى نشره له.

رغم أن كل هذه الدراسات والإصدارات كانت زائعة داخل دائرة علمية محدودة (٢) جدا، فإنها شدت من جديد الأنظار إلي هذا العمل المهم لليبنيز ، ومنذ هذا اليوم ذاع صيته فى الجرائد وحلقات الدرس، ومن هنا يجب أن يحتل مكانة بارزة فى أرشيف تاريخنا السياسى.

بهذا نعتقد أنه من المفيد تقديم هذا العمل إلي الجمهور العريض وإلى هؤلاء الذين يهتمون بمصالح وطننا وذلك للمرة الأولى فى لغتنا.

أما عن القيمة التى يمكن أن يقدمها مخطوط كهذا رغم مرور قرنين على ظهوره، فإن المديح الذى قاله له أحد أهم وألمع مانشر أخيرا قد يكون ضروريا كى نفهم قيمة هذا العمل.

---

(١) مذكرة عن مشروع الحملة على مصر، مقدمة ليبنيز عام ١٦٧٢ للويس الرابع عشر «تأليف ج. جوهراور، وقد قرأت المذكرة فى جلسات الرابع والعشرين من فبراير والسابع من يوليو عام ١٨٣٨ من الكراسة المخصصة للعلماء الأجانب.

(٢) مذكرات أكاديمية الأخلاق والعلوم السياسية، الجزء الثانى، باريس ١٨٣٩ الأجزاء LXXX111 و LXV111 .

« فى عهد الملك لويس الرابع عشر، قدم الفيلسوف العظيم ليبنيز مشروعا يعتبر واحدا من أجمل آثار الذكاء والفصاحة السياسية.

لقد أراد لويس الرابع عشر، من أجل حفنة ميداليات غزو هولندا.

ـ مولاى ، قال ليبنيز، لن نهزم هؤلاء الجمهوريين بغزو هولندا ولن نستطيع عبور سدودهم، وسوف تضعون كل أوربا فى جانبهم فلا يجب ضربهم إلا فى مصر، فهنا ستجدون الطريق الصحيح للهند، وتنتزعون تجارتها من الهولنديين وستوطدون السيطرة الأبدية لفرنسا فى الشرق، وسوف تسعدون المسيحية وستملأون العالم دهشة وإعجابا بكم. أما أوربا فسوف تظهر لكم آيات الإعجاب ولن تتحد أبدا ضدكم(١)

١٢) تاريخ الثورة الفرنسية ، تأليف «تيير» باريس ١٨٢٨ الجزء الأول صـ ٦٥

ملخــص

SOMMAIRE

إنه لمن أكبر المشاريع التى يمكن أن تقام ، وهو الاسهل بين المشاريع العظيمة حتى عند فشله ، كما أنه فى مأمن من الخطر ، وكأنه مناسب تماما للظروف الحالية كأنما خلق من أجلها ، وهو أيضا قمة ولع الناس بما يسمى «سر المعجزة» أى هذه الحكمة العميقة للرؤى السياسية المتناغمة فيما بينها .

وهذا المشروع يرسخ بشكل حاسم السيادة فى البحر وفى التجارة ، ولا يتطلب من تموين الا ما قد اعد مسبقا ، وسوف يحظى الملك بالتعاطف الدولى معه حال انقشاع الشكوك وانتهاء العداوات وبعدها يصبح المتحكم الأوحد فى التجارة وصاحب اليد العليا فى الشئون المسيحية ، كما أنه سيفتح طريق العزة للملك نفسه عندما يقوم بمثل هذا المشروع المرتبط تاريخيا بعظمة الاسكندر ، وسوف لا يكون هناك مجال للندم على التأخير إذا ما أحسنا استغلال الفرصة .

الفصل الأول

نبذة تاريخية عن المشروع

HISTORIQUE DU PROJET

رغم أن مرور الزمن قد أدى إلى نسيان هذا المشروع ، فإنه قد أغرى فى سالف الأيام عظماء الرجال وأكثرهم حكمة كوسيلة وحيدة لإعادة إرساء شئون المسيحية فى الشرق ، وأصل الفكرة يعود إلى أحد أسرى الحروب الصليبية .

فعندما أتم فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك انجلترا نزولهما إلى الارض المقدسة واحتلا عكا جاء سجين عربى يطلق عليه المؤرخون «الملهم» والذى أعتبره أنا من الحكماء ويدعى كاراكوس ، جاء إلى الملك فيليب الذى طلب منه ابداء رأيه فى مسألة الحرب ، فرد عليه بأن كل الحملات المسيحية فى فلسطين ستكون بلا جدوى مادامت مملكة مصر لم تسحق . وقد أعجب فيليب كثيرا بالفكرة حتى أنه أراد توجيه جيوشه فى التو جهة مصر لكن ريتشارد - الذى كان يحكم مملكة القدس - عارضه ، فتراجع فيليب غاضبا إلى حدود مملكته ، وعندما فشل ريتشارد فى جهوده عاد إلى فكرة غزو مصر ، لكن المنية وافته قبل تحقيقها .

ثم بحثت الفكرة فيما بعد عندما دعا البابا اينوسنت الثالث مجمع لاتران للانعقاد ، إلا أن المسيحيين الذين لا يستجيبون بصوت واحد وإرادة واحدة ، والذين لم يطيعوا بما فيه الكفاية وفيهم الكاردينال بيلاج ، عزموا على إفشال المشروع .

وعندما نقارن القوات المتواضعة للملك سان لويس مع القوات الحالية لفرنسا سنجد أنها كفيلة بتحقيق النصيحة التى أعطاها السجين العربى لفيليب .

وعندما شرع سان لويس فى تحقيق نصيحة السجين العربى لجده احتل دمياط بعد حصار ناجح ، إلا أنه كان قد تقدم اكثر مما يلزم داخل الأراضى ، وكما طلب هو نفسه من قادته قبل مغادرة فرنسا من ضرورة إحكام السيطرة على البحر والنهر عندها حوصر الفرنسيون ثم هزموا واسروا .

ولو كان الفرنسيون قد اكتفوا باحتلال الساحل ثم انتظروا مددا جديدا من القوات الفرنسية لاستطاعوا غزو باقى البلاد بسهولة ، بعد ذلك دخلت الفكرة حيز النسيان بسبب الحروب والتنافس بين انجلترا وفرنسا رغم إلحاح ليون ملك أرمينيا والتنيرى كاسان ، وعلى الرغم ايضا من محاولة بيير ملك قبرص الذى احتل الاسكندرية بسهولة بواسطة أسطول مجهز بمعونة فرنسا والبندقية ، ولكن لكونه وحيدا فقد كان عاجزا عن الاحتفاظ بغنيمة بمثل هذا الحجم .

ومن حينها لا أرى مشروعنا العظيم قد أحيى إلا مرة واحدة بواسطة الكاردينال فرنسيسكو اكزيمنا FRANCISCO XI-MINES مطران طليطلة وحاكم اسبانيا الذى نجح فى جمع ثلاثة

من أكثر الحكام استنارة على توقيع معاهدة تحالف لغزو مصر وهم : فرديناند حاكم كاستيل CASTILLE وايمانويل ملك البرتغال ، وهنرى السادس ملك انجلترا . لكن موت فرديناند الذى أدى إلى سقوط أسبانيا فى يد العرش النمساوى زعزع هذا التحالف ثم أن ما اعقبه من نزاع هاتين القوتين افضى إلى إنشغالهما بأفكار أخرى .

إن فكرة يجتمع عليها مثل هؤلاء الحكماء تثبت أن مثل هذه المشاريع قليلا ما تكون وهما وخيالا ، والدليل على ذلك قول ايمانويل : «انى لأرى فى هذا المشروع الإرادة الإلهية تتجلى بطريقة خاصة ووعده الأكيد لنا بالنصر فى كل الظروف ، فلنضع فيه آمالنا لأن هذا الهدف من العظمة بحيث إنه من المستحيل أن يكون لنا مكان تحت السماء دون تحقيق هذا المجد أو الحياة أو الموت دونه .»

ولست أدرى إذا ما كانت هذه المعطيات مازالت صالحة أو أنها لم تكتسب بعد ما يلزمها من دقة ، فمصر اليوم لم تعد بنفس المناعة ولم تعد المركز بل مجرد إقليم فى الإمبراطورية العثمانية ، كما لست أدرى إذا ما كان الملك سيقوم بما عزم عليه الملوك الثلاثة مع الأخذ فى الإعتبار الوجود البرتغالى فى البحـــر الأحمر .

الفصل الثانى

مصر لعبت دائما دوراً كبيراً فى خدمــة الإنســانية

L' EGYPTE JOUE TOUJOURS UN GRAND ROLE DANS LES INTERETS DU GENRE HUMAIN

يمكن القول إن مصر لها قدر الصين أو أن الصين لها قدر مصر ، إنها أم العلوم وفواكه الأرض ومعجزات الطبيعة والفن ، ومن هنا كانت رغبة الاسكندر فى أن ينشىء فيها إمبراطوريته ويجعل منها مكان دفنه في الاسكندرية [١] التى كان قد بناها ، وعندما انهزم بومبى حاول أن يحصن بها قواته الا أن اغسطس قاهر انطونيو أخضعه لقواته فقد كان يريد أن ينشىء بها محميات له وليس لمجلس الشيوخ - ومنع النواب والفرسان من الذهاب إليها دون علمه ، أما نيرون فقد رأى الحظ يخالفه والامبراطورية تضيع من يده فطلب من مجلس الشيوخ ولاية مصر التى كانت صومعة الغلال لروما وقد بقيت مزدهرة وطيعة إلى أن وقعت فى يد الخليفة عمر ، ومن هذا الوقت تقدم العرب المهرة فى هذا الميدان عبر البحر وآسيا وأفريقيا حتى أوربا ويسطوا سلطتهم حتى إيطاليا واسبانيا واليونان وفعلوا ما فعل الفرنسيون والنورماديون فى أوربا والصليبيون في الشرق .. واخيرا فإن خلافاتهم الداخلية جاءت لتضع حدا لغزواتهم . ومع هذا فقد احتفظوا بأرض مصر كما يحتفظ بالعسل . ومما لا شك فيه ، إنه بسبب مصر فقد المسيحيون الأراضى المقدسة ذلك أنها كانت المنقذ للمسلمين الذين يجب أن يختفوا من الأرض .

---

(١) حاولت أن أعرف مصدر هذه المعلومة لدى ليبنيز فلم أفلح ، عسى أن يقدم لنا المتخصصون آراءهم فى ذلك .

الفصل الثالث

غزو مصر كان دوما سهـــل المنـــال

LEGYPTEFUT
TOUJOURS FACILEA
CONQURIR

قمبيز ، الاسكندر ، قيصر ثم أغسطس والعرب احتلوها دون مشقة ، وعندما استولى أمورى ملك القدس بقوات متواضعة على القاهرة المعاصرة كان على وشك أن يستولى على كل مصر ، إلا أن هذا الأمير العنيد رفع يده عن هذه المدينة التى كانت ستتحول إلى شؤم له ولخلفه ، كما لزم ايضا قليل من الجهد حتى تقع فى قبضة بيلاج وسان لويس . وهناك عدة عوائق علينا اجتيازها خصوصا ألا نكرر خطأ القيام بهذا الغزو بشكل انفرادى ، وايضا عدم الحرص فى التقدم تجاه اراضيها دون احتلال الساحل ثم وضعه فى حالة دفاع .

وفى رسائله إلى اكريمناس يرى إيمانويل أنه قادر على القيام وحده بهذا الغزو ، هذا فى وقت كانت مصر أشد بأسا وكانت حاضرة دولة المماليك الذين دافعوا عنها ببسالة ، بينما الأتراك اليوم ينهبون البلاد باسم أهداف وأطماع طموحة تبدد فى قوة هذا البلد .

وفى عصرنا هذا أراد عثمان سلطان الترك نقل عاصمة الإمبراطورية من القسطنطينية إلى القاهرة (١) لكن الانكشاريين عارضوه .. هكذا شاءت العناية الالهية كى يبقى هذا البلد مفتوحا امام المسيحيين (٢) حتى يستطيعوا سحق إمبراطورية الترك .

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضوع فى المقدمة .

(٢) فى النص الفرنسى Le canal resta ouvert

الفصل الرابع

جوهر المشروع

FOND DU PROJET

إن الحملة على مصر وسيلة للتحكم فى المصالح الدولية العليا وجل آمال الملك يمكن أن يضعها فى مصر . إن غزو مصر هو حق لفرنسا لأنه الادعاء باقامة مملكة عالمية (١) هنا لهو محض وهم ، بل محض اثم IMPIE ، وسيكون من العبث محاولة إقامتها فى اوروبا بثمن باهظ من العنف والدم والقتل ، اما هناك سيكون لفرنسا شرف التحكم فى الأقدار وقيادة العالم ، كما ستكون لها الصدارة فى المسيحية ووسيلة لانتزاع دور حامى الكنيسة مقرونا بلقب الابن الكبير . وبفضل هذا ستكتسب فرنسا حب العالم واعتراف البابا نفسه بفضلها ، إن فرنسا بجمعها بين الاقدام والعبقرية ستصبح حينئذ مدرسة أوربا العسكرية وسوقا يجمع بين المحيط والبحر المتوسط وسيدة التجارة فى الشرق ، ولن أتحدث عن لقب وحقوق إمبراطور الشرق الذين كانا إقطاعـــا له كما يجب أن يبقيا له دوما .

---

(١) هذا التعبير «مملكة عالمية» Royaume Universel يختلف بالطبع فى معناه السياسى عن كلمة «إمبراطورية» ، فالاول يعنى تجمعا يهدف إلى وحدة الإنسان - برغم تنوع ثقافاته - تحت قبضة قوة سياسية واحدة ، أما الثانى فهو مجرد اتحاد جغرافى لثقافات متعددة تحت قبضة قوة سياسية واحدة .

الفصل الخامس

إن حربا أوربية ستكون طائشة

UNE GUERRE EUROPEENNE SERAIT INÇONDEREE

من أجل غنيمة متواضعة فى أوربا تعرضون للخطر أمالا عريضة ، وفى الواقع ما قيمة أخذ بعض مدن بلجيكا أو الراين مقابل خلق الحواجز بين شعوبنا وتملون حتى على انفسكم صورة من العظمة الكاذبة المؤلمة وسط قارة مجيشة ووسط الشكوك والخوف والكراهية التى سوف تثيرونها . انظروا فى خاتمة نظام كهذا إنى لأراه كرب ابدى ، بل إنه الخراب المحتم للتجارة الفرنسية لأن كل الأمم الأخرى ستتحالف لوقف ازدهارها ثم ما سينتج عن هذا من فقر وتخبط مصادر الثروة العامة . أما فى حالة تبنيكم للمشروع المصرى فإن حالة الهدوء فى أوربا ستضمن رخاء فرنسا الذى سيكون دائما فى تقدم على ألا يعتمد هذا الرخاء الا على التجارة التى تكلف اكثر مما تعطى .

الفصل السادس

فتح مصر في الحالة الراهنة أفضل من أي بلد في العالم

L' Egypte, Dans Le moment actuel, Offre une conquete Préférable a`, celle de tout Les Pays du Monde

أول برزخ فى العالم موحد البحرين الأكثر أهمية فى الأرض، انها الطريق الضرورية الذى يجب أخذها وإلا فالدوران الكامل حول أفريقيا ، إنها حلقة الوصل بين الشرق والغرب ومكان التجارة [١] ، والمرحلة الضرورية لتفريغ السفن لتجارة الهند وأوربا ومراكز الرصد البحرى للمناطق المجاورة تزدهر وحدها وسط الصحارى بعدد سكانها الكبير وخصوبتها الرائعة . وقد كانت قديما مخزن غلال روما - أى أنها اليوم مخزن غلال تركيا الذى تنهل منه الكتان والتيل ومؤن البحر والبن والأرز والشراب ومنتجات أخرى كثيرة تزودها بها مصر بشكل يكاد يكون حكرا عليها وحدها .

باختصار مصر هى هولندا الشرق، كما أن فرنسا هى صين الغرب، غير أن مصر تتفوق بثرواتها الطبيعية على هولندا تماما كما تتفوق فرنسا على الصين وذلك لان مصر بلد يعيش مكتفيا بذاته بينما هولندا تدين بنموها إلى الراسب الرملى المتجمع عبر السنين بكد الشعب وبعض الانشطة الدينية ولا تقتات إلا بغفلة وإنشقاق الآخرين .

إن ايراد مصر اليوم يصل إلى ٦ ملايين [٢] فى العام على الرغم من تدهور تجارتها وجهل واهمال المسلمين ، وحكومتها لا

---

(١) فى النص الفرنسى
Le Rendez-Vous Commercial

(٢) «من الجنيهات» ملحوظة من المترجم الفرنسى .

تبقي في السلطة سوى ثلاثة أعوام يدفعها باشا [١] القاهرة من ثلاثة إلى أربع مائة ألف دوقية ، ورغم قصر مدة حكمه فإن هذا يمكنه من جمع ثروة طائلة وإن كان في واقع الأمر مضطرا لمقاسمة ذلك مع السلطان ، وبسبب هذا الإنتاج الغزير حددت ولاية الباشا بثلاث سنوات فقط - ومع هذا فإن الثروات التي يجنيها السلطان اليوم من مصر لا تساوى شيئا بالمقارنة بما يمكن أن تعطيه فعلا هذه الارض .

إن الإدارة الفرنسية - بالتعاون مع البرتغاليين - يمكنها أن تصبح سيدة تجارة الشرق التي هي الأكثر ربحا بالارض ، من سيجرؤ على منافستها باستخدام طريق رأس الرجاء الصالح عندما تصل البضائع طازجة وبطريق أسرع من طريق مصر !

وقد كانت مصر قبل اكتشاف العالم الجديد الطريق البحرى العظيم الذى بفضله حازت البندقية وجنوه ومعها المدن الحرة في ألمانيا ازدهارا ، وقد أجبر طغيان الترك إلى البحث عن وسائل أخرى للاتصال ليست بالضرورة أفضل ولكن لا غنى عنها .. فإذا جمعت فرنسا بمصانعها - التي هي في قمة أو على وشك أن تكون في مقدمة مصانع أوربا - إلى ذلك احتكار توابل الشرق ، فأية أمة تنازعها المكانة العليا في أسواق العالم صولجان الثراء والقوة ؟

---

(١) المقصود حاكم القاهرة .

لكن كل هذا ليس إلا غيضا من فيض ، فقد ثبت أن البرتغاليين حينما أرادوا إخضاع الهند الشرقية لامبراطوريتهم لم ينقصهم سوى الجيوش اللازمة لذلك . الآن يلزمنا ألف جندى برتغالى وعشرة آلاف جندى فرنسى وهنا لا يستطيع أحد أن يقارن الجندى البرتغالى بالجندى الفرنسى ، فإذا ما فتح هذا الطريق فان مجالا رحبا للاعمال العظيمة على غرار ما قام به الاسكندر ، إنى لأرى الانجيل وقد وصل إلى أبعد الاصقاع وانتشرت الغبطة المسيحية فى كل الارضين ، فإن غزو مصر لهو أكثر سهولة من غزو هولندا ، بل إن غزو الشرق كله أكثر سهولة من غزو المانيا وحدها .

إن الاسرتين الحاكمتين فى فرنسا والنمسا سيتقاسمان العالم، وسيقع الشرق فى نصيب الأولي ويكون الغرب فى نصيب الثانية ، وسوف تتخلص المانيا وايطاليا من الخوف من الاتراك-كما أن المغاربة لن يهددوا شبه الجزيرة الايبيرية بعد اليوم .

سيكون هذا التحالف الذى لا يتزعزع صلبا إلى الابد ، كما أنه سيضمن لكل من الاسرتين الحاكمتين - كل حسب ما يرغب الهيمنة على العالم واخيرا فهو موضوع قد شغل فى مؤتمر عقد أخيرا تحت سفح جبال البرانس وزراء مخضرمين من هاتين الدولتين .

الفصل السابع

سهولة نزول فرنسا إلي أرض مصـــر

Facilité Pour La France d'une descente En Egypte.

فلنعد فرقة جيدة على أهبة الاستعداد ، وليكن كل شيء دقيق الاعداد بحيث يصدر الملك أمره اليوم بل هذا المساء أو غدا صباحا فينفذ الأمر . فلنعمل حتى لا يعرقل أى شيء أهدافنا المحدد، ويجب ألا يشك أحد فى الهدف الحقيقى لهذه الاستعدادات . ثلاثون ألف رجل يكفون لهذه العملية . أن ملك حذر مثل عمانويل ملك البرتغال لم يكن إلا ليفعل نفش الشيء ولتحقيق نفس الغرض ويكفى أن تكرس للحملة غير اللازم أو الفائض من قوت الدولة جزءا منه فقط ، وليس كله فى نفس الوقت، فقط ما يلزم «لعملية الهجوم» إذا صح التعبير ..

لقد وضعت الطبيعة مصر وهولندا فى ظروف متشابهة فيلعب النيل فى الاولى نفس الدور الذى يلعبه الراين فى الثانية ، ومع هذا فليس هناك أى وجه للمقارنة فيما يخص التحصينات ، فالساحل المصرى لكونه مفتوحا وذى مدخل يسير على رجالنا الخبراء فى فنون البحر ، فإذا ما تم جمع السفن والاساطيل فان المجد فى عملية كهذه – وقد بدأ العمل فيها – سيجلب أفواج المتطوعين من كل البلاد . أما بالنسبة لنقل المقاتلين بطريق البحر فهذا له ميزة أن التدريب والنظام والروح العسكرية كفيلون بتقليل أعداد المصابين بأمراض البحر أو حصرها فى حدود ضيقة يمكن ملاحظتها والاشراف عليها بشكل جيد ، أما بالنسبة لأمراض البحر فليس لها خطورة ، ذلك لأن المسافة قصيرة وأن كل عمليات النقل بالبر كانت سيئة النتائج .

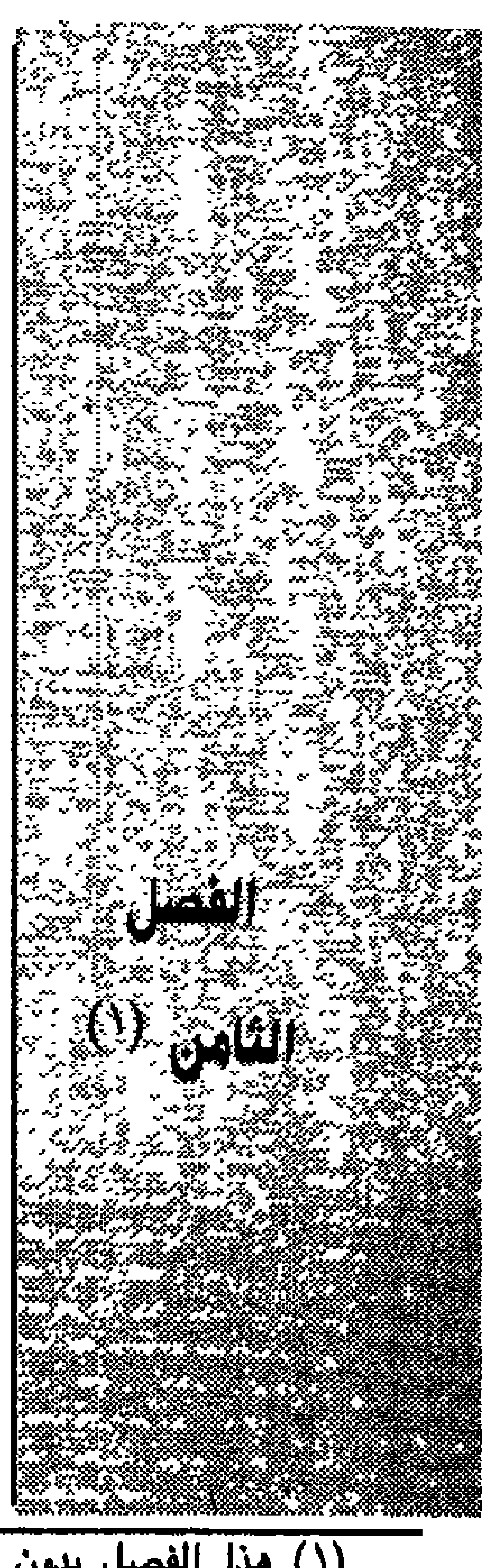
تأخذ المسافة من مرسيليا إلى الاسكندرية ستة أسابيع ، وأحيانا شهرا واحدا (١) لعبة البحرية الفرنسية أن تجوب البحر المتوسط، وفى هذا المجال فى النادر ما نسمع عن كوارث ذات أهمية .

وأنت إذا ما وصلت إلى جزيرة كريت فقط تكون قد قطعت ثلثى الطريق ، وفى مالطة التابعة لفرنسا محطة آمنة ، وهناك محطة أخرى تنتظرك فى لامبيدوز LAMPEDOUSE إلا إذا فضل الملك اتمام العملية كلها دفعة واحدة .

---

(١) «فى عام ١٧٩٨ استغرق عبور اسطول نابليون من طولون إلى الاسكندرية ثلاثة وثلاثين يوما واحتل الاسطول الفرنسى مالطة اثناء إبحارها، أما اليوم فالبواخر تقطع المسافة فى ١٥ يوما» .

ملحوظة من المترجم الفرنسى .



(١) هذا الفصل بدون عنوان فى الترجمة الفرنسية ، أما فى الأصل اللاتينى فالعنوان هو : DESCRIPTIO AEGYPTI .

يمتاز هذا البلد بمناخ صحي ، وهو هكذا للمسيحيين أكثر منهم للمسلمين لأن الطاعون التركي يرفق بالمسيحيين وهو ما نستنتجه من كتب الرحلات التي تقول إن الاقامة في مصر مريحة للغاية وعلى وجه الخصوص ماء النيل الذى هو أكثر المياه الصالحة للشرب نقاء . إنه مشروب طيب [١] حتى لو أخذ فى حالة الحمى الشديدة ، فالنيل هو الطبيب الطبيعى لهذا البلد .

إن المسلم المؤمن بالديانة المحمدية المستغنى عن النبيذ لا ينفق إلا ثلاثة قروش، وفى شهر يوليو عندما يفيض النيل يختفى الطاعون إذا اجتاح البلد (هذا الوباء يسببه أهمال المسلمين لأنه لم يكن معروفا فى العصر القديم) ، ويدور الفيضان حتى شهر نوفمبر ، وفى ديسمبر ويناير وفبراير تستقر التربة وعندها يبدأ العمل فى الارض رغم الامطار الخفيفة التى تسقط فى هذه الفترة، وفى شهرى أبريل ومايو تهب الرياح العاتية ، ومن نهاية مايو حتى وسط يونيو يبدأ فصل الحرارة الملتهبة ، وهنا يجب فورا عقب هذه الفترة غزو الساحل ثم تحصينه بسهولة أكثر وربما يجب اختيار فترة الفيضان وهبوب الرياح .

---

(١) فى النص الفرنسى : BREUVAGE INNOCENT .

الفصل التاسع

العناصر المكونة للجيش المصرى

Voici De Quoi se Compose La Milice Egyptienne

يتكون الجيش المصرى من سبعة آلاف جندى سباهية SPA-HIS أو ما يعرف بالفروسية الخفيفة وعدة آلاف من رماة الرماح Lanciers Ou Mustaferakas ، وخمسة آلاف من جنود الانكشارية الحقيقيين إذإأن عددا كبيرا من فرق أخرى يحملون نفس الاسم ، ثم أربعة آلاف عساب [1] ASAPES وهم نسخة مكررة من جنود الانكشارية وفى مجموعهم بما فيهم القوات الرمزية والقوات التي تحت السلاح نجد أنه جيش يتكون من ستة وثلاثين ألف رجل ، إذا أضفنا إليهم ميليشيات بكوات وزعماء بالعشائر والعربان من البدو الذين يمكن استيعابهم فى مؤخرة فرق النبلاء .

هذا الإجمالى يمكن أن يصل إلى مائة ألف رجل ، ولكن يجب أن نعرف أن الانكشارية – رغم قلة عددهم – يسيطرون ويحتقرون الفصائل الأخرى ويمكنهم التمرد دون أى عقاب ، وهذا يظهر مدى الضعف العام للبنيان العسكرى كما أن الانكشارية وسلاح الفرسان دائما مستعدون للتمرد وذبح كبار البكوات بل والاجهاز على الباشوات أنفسهم ، وهذه الاشياء من الأمور المعتادة بالنسبة لهم ، وللإيجاز يمكن القول أن كل هذه الميليشيات تنقصها الحيوية.

---

(١) أغلب الظن فرق حاملى السهام .

إن مصر فى واقع الامر لم تر عدوا لها منذ قرنين من الزمان، وهذا يعود إلى ثقة الاتراك فى التحصينات التى سنتحدث عنها لاحقا والتى تنهار خرابا الآن . وفى حقيقة الأمر فأنه على الرغم من المظاهر العسكرية المتفـاخـرة Malgré Leur Pompe Querriére فان الشرقيين عموما والمصريين خصوصا ضعفاء فى الناحية العسكرية وحالهم مثل رجال العرب [1] والمغاربة ، وهم ألد أعداء الاتراك الذين لا يستطيعون ردعهم كما يشهد بذلك كثير من شهود العيان ، أما عرب الجزيرة المجاورون فهم مستعدون دائما لكل أنواع التمرد والتلويح بالقوة حينما تسنح لهم الظروف ، وهذا ما تثبته محاولاتهم الأخيرة ، لكننا سنعود إلى هذا الموضوع عندما نتحدث عن حالات العصيان الداخلى فى تركيا وعن تمرد جيشها وانكشاريتها الذين تحولوا من وضع العسكر إلى وضع التجار .

(١) لا شك أن ليبنيز يقصد بكلمة العرب بدو مصر خاصة أنه يتحدث لاحقا عن عرب الجزيرة وأن أغلب المصريين اليوم يطلـق كلمـة عرب على بدو الصحراء .

الفصل
العاشر

التحصينـات

FORTIFICATIONS

إن التحصينات البحرية الواقعة على البحر المتوسط أو البحر الأحمر من النوع البحرى أو القائم بالأرض المغلقة TERRE FERME وأهمها في الاسكندرية ورشيد ودمياط ، ففى الاسكندرية حصنان لكنهما يقعان فى الخلاء دون خندق ولا دفاعات متقدمة LES OUVRAGES AVANECES وعاجزان عن المقاومة طويلا وليسا مزودان بالماء العذب فى الداخل، ثم رشيد عند مصب النيل التى لم تعد لها أهمية تذكر وتنقصها أيضا الدفاعات المتقدمة والخنادق، أما دمياط التى كلفت الصليبيين غالياً فهى اليوم فقيرة ومدمرة ، وفى شمال المدينة توجد قلعة قديمة لكن ليس بها دفاعات سوى برج قديم وعند مصب النيل أيضا يوجد بوغاز قريب من دمياط . وهو مربع الشكل محاط بأربعة أبراج مهدمة ودون أبواب ومفتوحة على مصراعيها . هذه إذن كل الدفاعات الساحلية لمصر وهى كما نرى فى متناول فرنسا .

ومن الجهة الأخرى نجد أن دفاعات البحر الأحمر أيضا مهملة وهنا تمتلك مصر ميناءين فى السويس والقصير والأول ليس به من دفاعات سوى برج محصن جيدا مستدير الشكل يحتفظ فيه باثنين

وعشرين مدفعا . أما الميناء الشهير في القصير فقد أضحى اليوم شديد الفقر . وبالنسبة لباقي الدفاعات في زيبيه ZIBBIH وسواكن ومصوع [١] بجنودها البالغ عددهم بضعة مئات ويعتبرون صيدا سهلا للأسر . ونحن إذا ما اتحدنا مع الأسطول البرتغالي الذي سوف ينضم إلينا في البحر الأحمر فلن تبقى سوى نقطة واحدة داخل البلاد وتستحق الهجوم لأنها مستعدة للمقاومة الجادة ألا وهي القاهرة . ومع هذا يمكن القول إن هذه المدينة لا تتمتع بدفاعات اللهم إلا إذا اعتبرنا امتدادها الشاسع وتعداد سكانها وسيلة دفاعية وهي مدينة مهددة بالحرائق والمجاعات ، ثم إنها بعيدة ومنعزلة عن كل وسيلة اتصال صالحة ويسيرة مع تركز الدولة في تركيا . وأخيرا فإن حصارا محكما سيجبرها حتما على الاستسلام . ومرة أخرى فإن هذا النصر الأخير يعتبر في حكم المؤكد ، فالقاهرة تصبح مدينة ميتة إذا احتلت السواحل الشمالية وصودرت التجارة . أخيرا يمكن القول إنه على الرغم من أن مصر

---

(١) هذه الموانيء الثلاثة لم تكن مصرية بعد زمن ليبنيز ، فهل كان هذا الخاطر من ليبنيز نوعا من النبوءة لأن محمد علي ضمها إلى مصر بعد قرن ونصف .

تصنع البارود فإن مدفعيتها محدودة ، وحصن القاهرة لم يسمع أبدا هدير أكثر من ثلاثين مدفعا .

ولقد درسنا أيضا الحالة الدفاعية لسوريا كلها خصوصا ساحل مثــلا دافينـــــا [١] ولوريس LARISSE [٢] وكاتيلا -CA THELLA [٣] وعينون وفى مدخل فلسطين غزة وعسقلان ويافا وقلعة حيفا . وفى فينيقيا عكا وصور وصيدا وبيروت والجبل DJABBELI وطرابلس . في كل مكان لا تجد إلا تحصينات فقيرة متهالكة سيئة الخدمة وسيئة الحراسة وسيئة فى كل شىء .

وفى سوريا – على سبيل المثال – نجد فى التقرير البحرى مدينة الاسكندرية التى تستحق بعض الاهتمام لكنها غير محصنة وملحق بها بعض المنازل الحجرية ، وهناك بالقرب من البوغاز حصـن مـن الطـوب لكـن دون دفاعـات رغـم أنــه يقـع فى طرف الساحل عند البحر .

---

(١) قرية سورية تقع على نهر الأورنت جنوب أنطاكية حيث كانت تقام احتفالات وأعياد أبولون .

(٢) لم نجد اسم هذه المدينة فى سوريا ، وأغلب الظن أن ليبنيز يخلط بينها وبين لوريسطان LARISTAN فى إيران ، أو مدينة LARISSA فى اليونان .

(٣) هذا الاسم أيضا لم نجده فى سوريا .

هكذا إذن كل الساحل المتوسط فى قبضتنا . أما قبرص فهى بعيدة بعض الشىء ، وقد أقام بها البنادقة أعمالاً بحرية عظيمة ، وفى نيقوسيا وفاماغوستا انهارت الدفاعات بسبب إهمال الأتراك ، ويبقى الآن من كل ســوريا مدينتان مهمتان هما دمشق وحلب واللتان سيلقيان نفس مصير مدن الساحل أو تنهار بانهيار تجارتهما .

الفصل الحادى عشر

في حالة ما إذا تدخلت تركيا لنجدة مصر فإنها لا تستطيع ذلك إلا متأخرة وبمشقة بالغة

LA TURQUIE,SI ELLE VIENT AU SECOURS DE L'EGYPTE, NE PEUT LE FAIRE QUE TARDI VE-MENT ET AVEC ...UCOUP DE PEINE

أولا : إنها لن تشك مطلقا فى غرضنا الحقيقى فى مصر اللهم إلا إذا تخلينا نحن عنه ، فإذا ما رأت تركيا أسطولنا فى البحر فربما تخشى فقدان كريت أو جزر الدردنيل أو القسطنطينية ، وعلى صعيد آخر فإن الفرنسيين إذا ما نزلوا الساحل المصرى واحتلوه فأى علاج لهذا لهو فى حكم المستحيل لأنه بدءا من هذه اللحظة ستكون السلطة ومفتاح الموقف فى أيديهم .

أما بالنسبة للقاهرة وداخل البلاد ، فإن المدد لا يمكن أن يصل إلا متأخرا جدا وبصعوبة بالغة لكنه يصل بطريق البر وليس بطريق البحر ، وهذا يعنى ضرورة اجتياز الصحراء حيث العربان من البدو يستطيعون إغلاق الطريق على مائة ألف رجل بفرق متتابعة تضم عشرين ألف رجل ، وهذه الطريق وعرة وليس هناك أخطر من اجتيازها بسبب الرياح التى تعميك برمالها ، وليس فى السنة إلا موسم واحد يمكن فيه اجتياز الصحراء فإذا ما مر هذا الموسم يكون من المستحيل الاجتياز إلا فى نفس الوقت من العام التالى .

ولن أتحدث عن إمكانية أخرى وهى احتلال الجيش المسيحى المناطق المتاخمة لسوريا والقريبة من الاسكندرونة ، فمن البديهى أنه سيقطع الطريق بين سوريا وفلسطين من ناحية وآسيا الصغرى من ناحية أخرى ، وعلي هذا فإن تركيا ستتخلى عن هذه الفكرة .

أما العدالة فهى تباع وتشترى ولهم فى هذا شهرة واسعة ، فلكم أن تقدروا بغض الرعية للقضاة وهذه وسيلة جيدة لتكوين الثروات ، والسلطان الحالى ابراهيم باع عملا بنصيحة المفتى والوزير - زخارف السراى كى يدفع مرتبات جنده ، أما كنوزه التى يخبئونها فى غرف منفصلة مختومة بخاتم أمين سر الضرائب وهى تحتوى على أشياء ثمينة مثل الأحجار الكريمة والملابس والسجاد وكل ما تتجاوز قيمته العملة المتداولة حيث إنه بهذه الطريقة يصعب حصر قيمتها اذا اقتضت الظروف . لأن الجيش التركى فى حالة إذا ما أراد أن يتجنب الصحراء والجبال سيكون مجبراً على اجتياح المزارع والحقول ، فى نفس الوقت الذى ستكون فيه عناصر جيشه المهمة مشغولة فى أوربا إما فى المجر أو فى بولندا .

وهنا تكون الفرصة سانحة أمام فرنسا لاجتياح مصر ، ففى حقيقة الأمر ليس هناك أبطأ من الجيش التركى خصوصا فى المناطق الصحراوية التى تشكل أغلب أقاليمه ، هذا بالاضافة إلى مشاكل التموين من ناحية ومشاكل النقل البحرى من ناحية أخرى، والجيش التركى المشتت فى الأقاليم الشرقية لبلاد بين الرافدين وسوريا والقـابادوس أصبح فى حـــالة ضعف شـديد حتى أنه

لا يستطيع الدفاع عنها ضد الشيتيين SCHYTES والفرس والجيورجيين . وهنا يمكن أيضا إلحاق ضررين فادحين بتركيا - أولا خسارتها لمصر وثانيا خسارتها للأقاليم الأخرى ذات الدفاعات السيئة .

وأخيرا اذا ما احتلت مصر فإنه من الممكن إغلاق حدودها البرية حتى أمام أعتى القوى . فعندما أخضع تيمورلنك سلطان تركيا تقدم أمام أبواب مصر بمائتى ألف رجل ، فكان كافيا ثلاثون ألف مملوك لردعهم وإلحاق الخزى بهم .

الفصل الثاني عشر

انحطاط الإمبراطورية العثمانية

D ECADENC DE L'EMPIRE OTTOMAN

إنه ظاهر أكثر مما نعتقد ، أن هذه الأمبراطورية تحتاج خصوصا إلى القوة البحرية ، وهذا يشكل نقطة ضعف فيها ، ويوما بعد يوم يهجرها سكانها وتنهار تجارتها . ان جسد الامبراطورية يتنامى بشكل مبعثر ، فآفة الامبراطورية والسر الذى ينهش فى أحشائها والذى أصبح كارثة تهددها أكثر من أى سبب خارجي آخر قد يضاف إلى هذا هو أن الأتراك بحكم كونهم عدوانيين دائما لا يمتلكون أبدا وسائل دفاعية ، ومن هنا تأتى قوتهم وأمنهم وتفوقهم فلا شيء يمنعهم من وضع كل ما فى حوزتهم فى هجوم معد ارتجاليا ، ولأنهم معتادون على الاعتقاد منذ قرون أن لا أحد يستطيع تهديدهم نتطلع إلى العناية أن تثبت لهما قريباً عدم صحة هذا الوهم الكبير ، فإذا آثرنا لهم بعض المتاعب الجادة في مكانين مختلفين فى آن واحد فسيكون خرابهم محتما .

إن السلطان ذو ذكاء ضعيف ورجل جشع وعربيد ، وقد ترك للآخرين إدارة دفة الحكم فى الإمبراطورية ، وهو مكروه لدى سلاح الفرسان ولدى الانكشارية . أما المواطن العادى فهو فقير ولا يولى أهمية لذريته التى تقع على عاتقه . ومن هنا تأتى أخلاقهم السيئة مثل هجر النساء وتعدد الزوجات .

أما التجارة والصناعة والمصانع والثروة الحيوانية فكلها فى

أيدى اليهود ، والأتراك لا يستأثرون إلا بوضع الاستقراطية المزعومة والتى تستخدم كغطاء للبطالة المقنعة وشأنهم فى هذا شأن الاسبان، وأكبر ثروات السلطان يحصل عليها من أوربا عبر مصر .
وحسب العالمين ببواطن الامور فإن العقارات والثروات التى يملكها هؤلاء فى انحسار مستمر .

الفصل الثالث عشر

البحرية التركية لا يعتد بها

LA MARINE TURQUE EST INSIGNIFIANTE

لست أدرى أى اهمال أدى إلى ترك التعاليم الثمينة لسليمان العظيم التى هى فى حقيقة الأمر لو كان قد اتبعها خلفه بالإضافة إلى كل مواردهم البحرية لكان اليوم لهم الهيمنة على الأرض كلها .

وكما رأينا ، فإنهم اليوم مطرودون من الدردنيل بواسطة البنادقة ، مرتدون مرتعدون خلف أسوار القسطنطينية ، ليس عندهم ولا حتى شراع واحد .. ولأنهم يستخدمون حتى اليوم طريقة التجديف ، فإن أى نوع من الخشب يناسبهم ، لكن تنقصهم تماما السفن الضخمة . ويقال أن بعض بكوات الأرخبيل قد زودوا بحريتهم بمثل هذه السفن ـ لكن هذا لا يتجاوز الأربع عشرة سفينة ـ وهذه قوة لا يعتد بها خصوصا مع عاداتهم فى القرصنة التى تجعلهم يحفلون بالغنيمة ولا يهتمون بالبقاء فى البحر فى بارجتين هما كل ما يملكون .

الفصل الرابع عشر

انحطاط القوات البرية بشكل عام

L'ARMEE DE TERRE EST GENERALEMENT ABATARDIE

قديما كانت القوة العسكرية للإمبراطورية تتركز فى القسطنطينية التى كانت تضم ترسانات عظيمة ، أما اليوم فإن كل شيء يعمل لسد الاحتياجات اليومية ، والباشاوات يتعاملون مع الأقاليم بمنطــق البلاد المقهـورة ، وأهــل البلاد يرون أبناءهم وقد سيقوا كالعبيد البولنديين إلى القسطنطينية . وبسبب فساد القادة تشكلت ميليشيات مسلمة متمتعة بمزايا المحاربين ، وفيما مضى كان جنود الانكشارية يمتنعون عن الزواج ، واليوم فكلهم متزوجون يعملون بالتجارة والصناعة لاطعام أسرهم وأولادهم . وقد أثارتهم أخيرا حرب المجر وكادت تشعل فتنة بينهم . ونفس الشيء حدث من جنود سلاح الفرسان الاسباهبة الذين ينحدرون من أصول آسيوية والسلطان الحالى الذى لا يرى إلا أنهم قتلة أبيه قد نزل بهم إلى مستوى الفقر بعد أن كانوا أغنياء وهم اليوم مضطرون للتكاتف لمقاومة الأعداء . وقد كانت ثورة حسن باشا الحلبى بداية لخسارتهم إذ انهم أيدوه فى بادىء الأمر ، ويبلغ تعداد هؤلاء ـ عدا ميليشيات مصر التى تخضع لنظام خاص بها ـ نحو تسعة آلاف جندى فى كل الأمبراطورية والانكشارية نحو عشرين ألفا ، واليوم يحاولون تشكيل انكشارية مسيحية الأمر الذى لم يكن معروفا من قبل . وقديما كان نظام التجنيد يتطلب ستة أو سبعة أعوام . أما اليوم فإنه فى نهاية عام واحد يصبح المجند انكشاريا . وكانت المناصب

القيادية العليا تمنح استحقاقا ، أما اليوم فهى تمنح لأبناء العائلات الذين تعلموا فى القسطنطينية . وقد سرت اشاعات مفادها أن حرب المجر ما قامت إلا للتخلص من الانكشارية والفرسان ، ففى عام ١٦٦٤ قتل أكثر من ١٢٠٠ رجل به صفوة الجيش التركى فى موقعة سان جوتار SAINT GOTHARO وكان هذا تدبير الوزير الأكبر الذى لا يتورع عن تعريض أمن الإمبراطورية للخطر من أجل سحق هذه الميلشيات على أمل استبدالها بأخرى أكثر طاعة وخضوعا للنظام الجديد .

أما الجنود الاقطاعيون فهم يتكونون من عدد من أمراء الاقطاع ومعهم عدد من الخدم ، أما الاقطاعيون التيماريون الأوربيون فعددهم يبلغ مائة ألف رجل موزعون كالآتى : ستون ألفاً من بيجلير بياليك BEGLER BEYLICK فى بلاد الأناضول ، ثم ثلاثون ألفا فى قرمانيا CARAMANIE وسوريا وقبرص وما يجاورها ، ثم ستة وثلاثون ألفا فى أصقاع أخرى فى بلاد الفرس وما يتاخمها .

ومن هذا كله نرى انه لا القوات الموجودة فى أوربا ولا تلك المجاورة لبلاد الفرس تستطيع أن تهب لنجدة مصر لأنه لن يبقى لهم إلا خمسون ألف رجل ، فالتركى لا يغامر أبدا بكل موارده ، ثم إننا تحدثنا عن صعوبة الطريق وعن سهولة اغلاق مدخل مصر ، ثم

سحقهم فى الصحراء . وفى هذه الحالة ـ وعندما تتم هزيمتهم وقطع أوصالهم فى الصحراء لن يبقى لهم أى أمل فى إعادة تشكيل جيشهم أو النهوض من جديد . وقد قال يوما أحد العسكريين الممتازين وهو يارنوفيوس بوتوك JARNOVIERS POTOK فى عصر سليمان : إن الترك عندما يحشدون كل قواتهم لا يجمعون إلا ستين ألف رجل من القوات الخاصة وبشق النفس .

الفصل الخامس عشر

الانقسامات الداخلية عند الترك

DIVISIONS INTESTINES DES TURCS

فلنتكلم الآن عن مظاهر الإنحطاط الوشيك ، فعندما تفكر فى هذه الدولة الأكثر طغيانا والأكثر عنفا التى يمكن أن يتخيلها عقل ، وعندما تنظر إلى هذه السلطة المطلقة التى يمارسها رجل واحد ، رجل غنى ، وعندما تنظر إلى هذه العدالة التى يمكن شراؤها وإلى هذه الرعية التعيســة المغبونة إلى حد اليأس ، وإلى كل هذه الشعوب الغاضبة والجوعى حتى الموت ، وإلى هؤلاء الفقـــراء الهاربين إلى الصحراء من بطش أسيادهم ، وإلى مشاهد الجريمة فى قطاع الخدمات حتى من جانب العسكريين الذين يتمردون دون عقاب ، وعندما نرى هؤلاء الحكام غير الأكفاء الذين يدينون بصعودهم لمناصبهم إلى المصادفة وأحيانا إلى مفاضلات مفضوحة، وهم فى الســـلطة يعلمون جيدا عن طريق من سـبقهم فيها إنها لا تدوم ، وكذا فهم لا يعملون إلا للثراء فقط وبأسرع ما يمكن على الرغم من أنهم وأولادهم يعلمون أن اليوم آت عندما يأمر الحاكم بجز أعناقهم وخراب بيوتهم .

وعندما نرى كل هذا يتساءل العقلاء لماذا يترك الله امبراطورية كهذه عدوة للمسيحية إلا لغرض لا نعرفه وربما حانت الساعة وقرر الرب أن ينظر إلى شعبه بعين العطف ، نعم ، نعم حانت الساعة إذا أردنا فالسـلطان فقد فى عين النـاس حـــرمة ذاته المقدســة التى

لا تمس ، وقد رأينا هذا مرتين فى شخصى عثمان وإبراهيم وكل وزراء السلطان يعيشون كما فى الأحلام أو كما فى تمثيلية ، وهم يشبهون النباتات الشيطانية فى الأرض لا يعرف من أين يأتون وماذا يفعلــون وفى أى شىء يســتخدمون ؟ وهؤلاء الرجال الذين لا قلب لهم يجهلون القلق النبيل بالمستقبل وبالغد وبالخلود . وقد رأينا بعضهم يحاول النهوض من هذا السبات العميق فكان أقل الجزاء الذى لاقوه هو الموت وهو يهدد كل من حاول نفس الشىء وبذات المصير .

أما البعض الآخر فهم كالمواشى الغبية LE BETAIL STU-PIDE تكاد تحنى رأسها دائما مفضلة العبودية بثقلها وعارها على شرف الخطر .

ونتيجة لهذا لا تجد أبدا فى هذه الأمبراطورية اثنين من الباشوات يتآمران معا ، فتجد دائما أحدهما يوشى بالآخر . أما الذى كان فوق سلطة الباشوات فهم الانكشارية ، وعندما حاول إبراهيم أن ينظمهم فى الطاعة قتلوه حتى السلطان الحالى حاولوا قتله عندما كان لا يزال طفلا .

وعندما أراد الوزير كوبروجلى COPROGLI التقرب من السلطان فإنه لم يفعل إلا أنه تخلص من الانكشارية بنقل العاصمة من القسطنطينية إلى اندريبول ANDRIPOLE بحجة مراقبة سفن

البندقية ثم شتتهم إما بإسكانهم فى مناطق بعيدة أو بإهلاكهم عن طريق ارسالهم إلى الحرب ، لكنه بإهلاك الانكشارية أضعف الدولة لانهم كانوا قوة لها . ثم أن هناك شيئا لم يسمع عنه من قبل فى هذه الدولة وهو أن هذا الوزير قد ترك فى شخص الوزير الحالى ـ وهو ابنه ـ وريثا لهذه السياسة ، وجعل السلطان يعتقد أن نجاته فى هذا الأمر يرتبط أساسا بوزيره ، ولنفس الغرض استطاع الوزير أن يشكل حرسا خاصا من مواطنيه الألبان المعروفين بهمجيتهم .. وكل هذا يمكن أن ينقلب ضد السلطان نفسه خاصة عندما ينهزمون فى مصر .. وقد قيل الكثير عن الخصام بين السلطان من ناحية وأمه وأخيه من ناحية أخرى ، لكن ليس عندى ما أقول فى هذا الموضوع .

وليس هناك شىء دائم الحدوث مثل تمرد الباشوات فسمعنا عن تمرد جـزيل GAZEL و زيليب ZEBIB و المرابط MARABUT فى أفريقيا ، وفى عصرنا هذا رأينا التمرد الشهير لعلى باشا والى حلب الذى كان أول من سلح الصغهان SEGHANS والصيرغان SERGIENS ليقاوم بهم جنود السباهية والانكشارية ومثله أيضا فى هذا المضمار انشى باشا INCHI PACHA وحسن باشا وجميعهم حذوا حذو على باشا . ويجب أن نذكر أيضا تمرد والى بابليون الذى سلم مدينته إلى الفرس ، وأخيرا نذكر توريس

TAURIS والى جورجيا الذى حرض كل جنود اسباهية آسيا الصغرى وكان يحذو فى هذا حذو حسن باشا ثم مرتضى باشا MORTAZA PACHA والى بابليون ، ولو أحكم حسن باشا خطته لخسر السلطان الذى كان جيشه منهمكا فى حرب المجر .. ومن حسن طالع تركيا ان اثنين من الباشوات لا يتمردان أبدا معا والسبب فى هذا إنهما لا يجرآن على أن يتصارحا بما يفكران فيه ، كما ان صداقة حقيقية لا يمكن أن تنشأ بين روحين ولدا فى العبودية ومن نفس المريكة .

لكن إذا قام أمير من الخارج بمساعدة بعض الباشوات فى الداخل أى مجموعة من النابهين لعمل هذا المشروع ، فسـوف تكون هذه الوسيلة الوحيدة لإشعال النار فى نقاط مختلفة فى نفس الوقت ، وهذا ما يجب أن يحدث بالضرورة أثناء الحملة التى اقترحها .

وفى الواقع لست أدرى اليوم كيف أمكن لولاة كثيرين فى أماكن كثيرة أن يتحرروا فوالى البصرة يكاد يكون حاكما مطلقا ، وقد اضطر الباب العالى إلى وضع طرف ثالث بين والى حلب ووالى ديار بكر ، أما والى كوشابا فقد ارتد إلى الجبال . ولقد بدأوا يتيقنون أن الهاجس الذى وصل إلى حد المرض الذى يسببه الحبل الذى يرسله السلطان لهم كى يشنقوا به أنفسهم ليس إلا وهما .

إن سلطة الباشوات اليوم تكاد تكون مطلقة فى كل مكان ، والقوة الوحيدة التى تجمعهم هى ضعف ويأس شعوبهم لأن الجندى منهم لا يستطيع أن يعيش بمفرده فإذا ما تجمعت قوى خارجية واحتلت الباب العالى فثورة الباشوات ستكون حتمية حينئذ وربما سيكون من السهل على جيشنا اقناع الجيش المصرى بتسليم مصر مقابل ترك ثرواتها له ، ففى حقيقة الأمر ليس لدى هذا الجيش أى حب لمصر والوالى لا يحتفظ بالبلد إلا بسبب الخوف الذى يصل إلى حد العبودية من الحبل الذى ينتظره فى القسطنطينية ، وهو لا يفكر أو يتعامل مع الأوربيين إلا بعد تفكير طويل ، وهو فى هذا يعرف إنه يمكنه العيش معهم فى وداعة وأمان ولا يجب الاعتقاد بعداوتهم للمسيحيين لأن ليس لهم دين .

الفصل السادس عشر

معاونة مسيحيي تركيا

CONCOURS DES
CHRETIENS
DE TURQUIE

هؤلاء سيكون لهم نصيب كبير فى هذا المشروع العظيم . إن مدن القسطنطينية ، القاهرة ، القدس ، أزمير تضم عددا كبيرا من الأوربيين المضطهدين والمستضعفين ، هؤلاء سيستقبلون بود القادة الفاتحين ، ونعلم أنهم لا يتشكلون فقط من صناع وتجار ولكن أيضا من مزارعين مسيحيين منتشرين في كل أرجاء الامبراطورية ، وهؤلاء المزارعون يتجمعون فى الغابات والجبال والأماكن المنعزلة مثل ارمينيا وكابادوس وسوريا ومنهم الموارنة والأكراد في أوربا ، أما سكان البيلوبونيز والمورة والالبان والبلغار فهم شعوب قليلة الطاعة ولا ينقصهم إلا الزعماء والفرصة للخروج من عزلتهم والمطالبة باستقلالهم . ولن اتحدث عن جزر قبرص ، وليتبوس وليمنوس LESBOS ET LEMNOS وكريت CANDIE وثيو CHIO وبلاد بين الرافدين وميديا LA MEDİE وارمينيا المكتظة بالاكراد ، أما الاقباط فهم المسيحيون من أصل مصرى . وقد رأينا شعوبا تئن تحت نير الاستعباد خرجت تغزو بحفنة من الرعاة امبراطوريات واسعة . هكذا فعل العرب والتتار والاتراك أنفسهم ، وقد اعطانا جورجوفيل GARGVILLE الذى اعتزل فى صحراء أناضول جرامانيا فكرة جيدة عن حالتهم وقوتهم ، ومن هذا الوقت لم يتغير شئ اللهم إلا أخلاقهم التى أصبحت أكثر وحشية والولاة أصبحوا يعارضون أن يتحول المسيحيون إلى أتراك حتى لا تنخفض موارد الدولة .

وفى موقعة أجرا AGRA وردت الانباء عن هزيمة الاتراك ، ففى التو هرع الالبان والابيروت واللاليرون إلى السلاح ، أما الترانسيلفانيا والفلاشى ومولبافيا وجورجيا فعينوا على رأسهم زعماء مسيحيين، وحكام كروستان يعرفون بالسناجق وهم مسيحيون . ولنذكر هنا أن ملك البرتغال كتب إلى اكزينيس أن مسيحيى السودان المصرى مستعدون لعمل أى شئ إذا ما رأوا بريق سلاحهم فى أرضهم ، ونعلم أن الموارنة تخلصوا بالقوة من هيمنة المسلمين أما جيرانهم الدروز فهم البقايا التى تركها مسيحيو أوربا عند حملاتهم فى فلسطين.ومنهم ينحدر أمراء صور وصيدا وكلهم مستعدون للنهوض لصالح المسيحيين ومنهم الأمير فخر الدين الذى رحل إلى ايطاليا من أجل هذا الهدف يسأل أمراءهم لأنهم أكثر شجاعة للذهاب لغزو مصر وقبله أمير من أمراء العرب رأى أن ليس هناك بطل يضطلع بهذه المهمة فأرسل الهدايا سرا إلى ملك أسبانيا واضعا فكرة التمرد بعين الاعتبار ، وأخيراً أظهر أقرباء وخلفاء لفخر الدين الاستعداد الطيب وعندنا الدليل على هذا .

وأخيرا ، فاعلم أنه قد تسرب إلى السرايا نفسها بين الانكشارية والفرسان فئة نصف مسيحية والتى يراها الفطناء مبشرة بنتائج طيبة للإنسانية لأن الرب الحقيقى بدأ يسود فى قلب الأعداء .

الفصل السابع عشر

الانشقاق بين الأتراك في مصر نفسها

DISSENSIONS DES TURCS EN EGYPTE MEME

قبل أن نترك هذا الفصل عن الانشقاقات يجب أن أقول شيئا عن هذه الخلافات :

إن الحكم المصرى موزع على اثنى عشر سنجقا أو بك BEY ولم يكن من السهل انتزاع الحكم من العائلات القديمة ، لذا أصبح وراثيا . إن البكوات هم أسياد الفرسان الاقطاعيين وعندما يصبح هؤلاء أقوياء ويسببون الآلاف من النزاعات الصغيرة ولا يتورعون عن الاستئثار بسلطات الباشا بل ووضعه فى السجن ثم يطلبون واحدا آخر من السلطان العثمانى الذى يكون مضطرا أن يتغاضى عن ذلك لأنه لا يستطيع معاقبة مرتكبيه وإلا أدى ذلك إلى تعريض السلطنة نفسها للخطر . والقلاقل دائمة الحدوث فى مصر ويشهد على ذلك تمرد أحمد باشا والى مصر العليا عام ١٦٦٠ (١) .

والجدير بالذكر أنه أثناء الزلزال (وهو شئ نادر الحدوث فى مصر) (٢) وعند ظهور المذنب عام

---

(١) هذه الاحداث التى شهدها جنوب مصر أواخر عام ١٦٥٩ واستمرت حتى ١٦ يونيو ١٦٦٠ تزعمها محمد باشا وليس أحمد باشا كما يقول ليبنيز ، وربما يعود الخلط بين أحمد ومحمد إلى أن النطق اللاتينى للاسماء التركية AHMET أى أحمد و MEHMET أى محمد يكاد يكون متقاربا .

على أية حال هذا التمرد انتهى بشكل دموى عندما سحق جيش الحامية العثمانية بقيادة والى مصر غازى عجمى باشا التمرد ثم شنق الوالى نفسه وأرسل رأسه إلى اسطانبول لأن التمرد قام فى عهده .

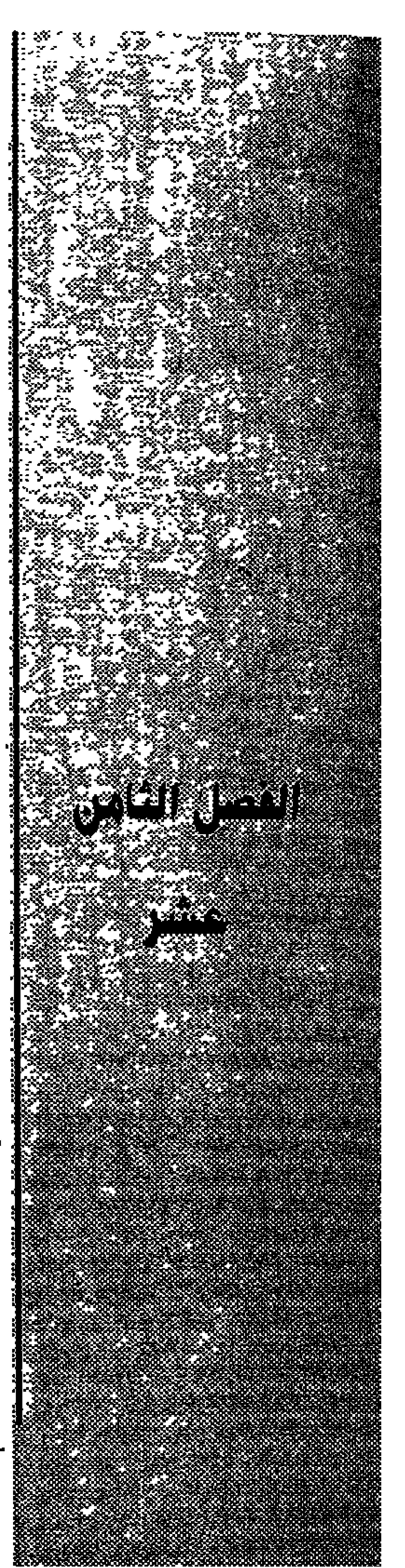
(٢) الاستدراك بين الحاصرتين من ليبنيز نفسه .

١٦٦٤ [١] رأى الناس فى هذه الظواهر علامات على قرب حدوث ثورة فى مصر . وفى واقع الأمر فإنه فى أثناء هذا حدثت مؤامرة العرب الذين كانوا يزودون الجنود الاقطاعيين وجيرانهم بالسلاح وكانت هذه ميليشيات تزعج الاتراك أنفسهم فلا شئ يوقظهم ولا شئ يردعهم عن السرقة على طريقة التتار ، كما أنهم مستعدون للاتحاد ضد أى عدو خارجى إذا ظهرت لهم غنيمة مشتركة وليس ضد هؤلاء الذين يدافعون عن أراضيهم ولا يقدمون لهم أى نفع لإرضاء أطماعهم . أما بالنسبة للانكشارية وبقية جنود الجيش المصرى فلا يعادل عدم مقدرتهم على الطاعة إلا خيبتهم فى القتال.

ومنذ مائة وخمسين عاما لم تر مصر عدوا واحدا اللهم إذا احتسبنا هؤلاء الاعداء الذين يقضون مضجعها والذين يتباهون بأنهم يعادلون جيشا رغم أنهم لا يتعدون العشرة آلاف رجل . ومع هذا يجب القول أنهم أقوياء إلى درجة أنهم يجرأون على وضع الباشا فى الحديد mettre le pacha dans les fers وذبح البكوات ثم زعزعة القوات التى أرسلها السلطان لعقابهم .. من أذن يشك فى اندلاع تمرد شامل وعدم إمكان الترك نجدة مصر فى حالة ما إذا وقع خبر الغزو الجديد ..

---

(١) ظهر هذا المذنب عام ١٦٦٩ وليس عام ١٦٦٤ كما يقول ليبنيز .



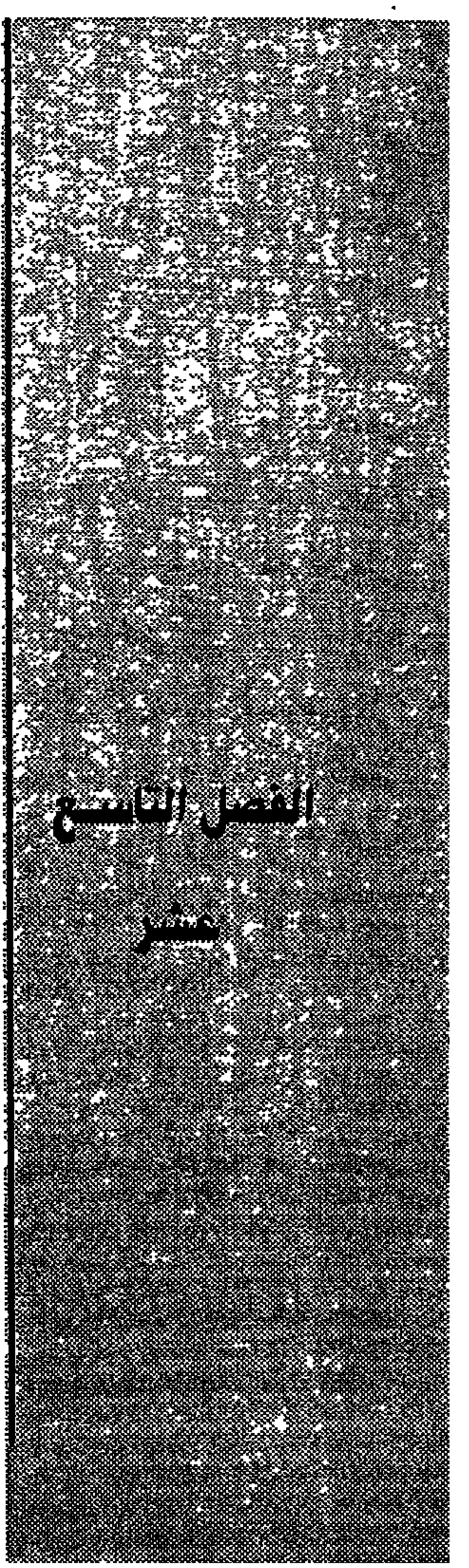
جيران مصر غير الخاضعين لتركيا

DES VOISINS DE L'EGYPTE NON SOUMIS A LA TURQUIE

لنر الآن فيما يخص هذا الجانب ما يجب أن نأمله وما ينبغى أن نخشاه . فى وسط الامبراطورية التركية نجد العرب والاحباش الدناقلة وأهل نومية وشعوب افريقيا الأخرى ، أما فى الغرب فنجد جورجيا وفارس ونعرف مسبقا أن العرب يكرهون الاتراك الذين يسيئون معاملتهم وينتظرون يوم الخلاص منهم . وفى لاغى الواقعة على الخليج الفارسى كما فى البصرة على الخليج العربى لا سلطان للباب العالى ، حتى أن ملك العرب البدو يعتبر أن الاتراك أعداء له ولهذا فأنه بانتشاره فى الصحراء كل يوم يخفى آبار الماء حتى لا يستولى عليها الاتراك . أما سوريا والجزيرة وفلسطين ومصر فالثورة فيها فى حالة اختمار FERMENTATION . وقد تحدثنا مسبقا عن المقترحات الذكية التى عرضها أمير عربى على ملك اسبانيا ثم اقتراحات أمير آخر مع أمراء ايطاليا ، فالفرصة سانحة إذن إذا استطعنا أن نستغلها . أما النوبيون والدناقلة فقد كانوا فى بادئ الأمر مسيحيين فإذا كانوا قد فقدوا إيمانهم فهذا يعزى إلى خطأ المبشرين وليس إلى عشقهم لمحمد ، لذلك سيكون من السهل كسبهم إلى صفنا فى حالة ما إذا تحركنا .

• أما البلاد التى تتاخم دنقلة وسنار فهى بلاد الحبشة وهى بلاد ترخص فيها تجارة اللحم البشرى – أى الرقيق – وهى تقايضنا به مقابل الاحتياجات الصغيرة للصناعة الأوربية ، وبهذا سيكون

لنا جيش إضافى نواجه به الصدمة الأولى لقتالنا مع العدو ، فالحبشة فى هذه الظروف تستطيع أن تساعدنا ، والبرتغاليون يستطيعون أن ينقلوا لنا عن طريق البحر مساعدة هؤلاء .. يبقى شئ آخر هو أن الاحباش مرتبطون بالاقباط رباطا أخويا ودينياً ، هذا بالاضافة إلى ورعهم وحبهم للأرض المقدسة التى يشرفون بالحج إليها - الزيارة - رغم ما يلاقونه من عنف واضطهاد الاتراك . كل افريقيا ستزودكم بالرجال بالإضافة إلى أنكم ستملأون سفنكم بالمرجان واللؤلؤ الصناعى وبالسكاكين وبالمقصات وأشياء أخرى مماثلة . وليس من شك فى أن الأحباش سيزودوننا ببضعة آلاف من الرجال لمعاونتنا فهم يرسلون دائما - وفى يوم واحد - عدة مئات لسوق النخاسة فى القاهرة لبيعهم ، هؤلاء العبيد رغم أنهم لا يجيدون فن الحرب فهم يتميزون بتحمل الشمس والطقس ، لذا يمكن استخدامهم فى صد الضربة الأولى للعدو بحيث أنه إذا كان عدد الجيش المسيحى خمسين ألفا يمكن أن نرفعه إلى مائة ألف عند إضافة هؤلاء العبيد أو عند أضافة العرب وأهل نومية الذين سيأتون إلينا آملين فى الغنائم إذ أنه من العبث الاعتقاد بأن هؤلاء القوم يعاونونا لأهداف دينية أما الجيورجيون فى الحرب فإنهم سيفعلون ما يفعلونه الآن فى السلم ويفعله الفرس ، فإنهم سينزلون بهم خسائر فادحة كما فعل الشاه عباس الذى هزمهم فى مواقع عدة ثم استولى على بابليون وأنهم يضمرون لهم حقدا أسود ولا ينتظرون إلا إشارة البدء من جيشنا .



جيــــران فرنســـــا

DES VOISINS DE LA FRANCE

تحدثنا عن جيران مصر ، لنتحدث الآن عن جيران فرنسا . فممن يجب أن نخاف ونحذر ؟ فلنر أولا الامبراطور وأقاليم الامبراطورية . فالامبراطور حاكم مستنير متزن وإيجابي يفضل التأنى لا التسرع وأهدافه التى يرنوها لا تقف أمامها أية دعاية ، وهو يثبت أنه ليس ضد حرية هذه الأقاليم بل أنه قد ذوب سلطته فى المجالس النيابية وهذا شئ طالما أخاف سلفه ، وفى نفس الوقت أظهر لهم أن بدون سلطته تصبح ارادتهم حبة رمل دون اسمنت .. وهكذا فأنه بهذه الطريقة رفع غيرته من اسرته إلى مرتبة المنافسة ضد نفسه ، وهو إذا ما شرع فى أمر اتمه ، كما أنه يوفر الأمن لامبراطوريته سواء ضد الترك أو ضد السويديين ، وهو بغزوه لمصر وبنجاح هذا الغزو ينهى أي خوف من أى عدو للإمبراطورية سواء كان أوربيا أو آسيويا ، من المؤكد أن لا أحد سيعارضه فى هذا المشروع لأن لا أحد يشك فى أنه يرغب فى صدام مع الاتراك لأن كل جانب يرهب الآخر .

ولكن قد نتساءل : وإذا حدث أثناء هذا أن فرنسا زودت الامبراطور ببعض العون ولو بالمال لزيادة عدد قواته فى المجر وذلك لمساعدته على سحق المتمردين فإن الاتراك فى هذه الحالة سيكونون مجبرين على ترك آسيا . أما من ناحية بولندا فلا خطر أبدا ، ذلك لأنها مهددة من تركيا والقوزاق واصدقائهما من تخلوا

عنها فهؤلاء الذين كسبوا الحرب ضد المسلمين فى موقعة شوتيم قد خسروا فى حرب السويد ما اشتهروا به من شجاعة وفداء ، والقوزاق أصبحوا لا يطاقون تحت حكم الملك بيا الذى لا يطيقونه بدورهم قبل كل شئ ، يبقى الآن الفرق الأخرى ومن العبث أن نخدع أنفسنا باعتقاد أن التتار والقوزاق أنفسهم لن يسمحوا بضرب بولندا خوفا من أن يصبح الاتراك جيرانا قريبين لهم . إن هذه الشعوب لا تعرف إلا مصالحها الآنية فإذا لم تتعارض فأن الترك يستطيعون غزو بولندا كلها حتى فيستوك ، وليس هناك اذن ما نخافه من بولندا بل يمكننا أن نأمل منها - إذا ارادت فرنسا أن تقاوم تركيا بصلابة ، وهكذا فإن كل ما يتعلق فى هذا الموضوع بفرنسا يتلخص فى ضرورة مساندة الملك . وبهذا يمكن أن تنضم مملكة موسكو إلى الامبراطورية وهنا لن يكون أمام تركيا إلا خيار ابتلاع قواتها فى حالة إذا ما هاجمناها من الخلف وعندها قليل من المال يكفى لمساعدة بولندا ، وهذا المال سيكون فى مكان أفضل فى بولندا خيرا من أن يقع فى أيدى الانجليز الذين يمكن أن يتحولوا من يوم لآخر إلى اعداء لك ، فمن مصلحة الامبراطورية إذن أن تساعد بولندا إذا ما ارادت أن تعتمد على تماسك وإخلاص فرنسا .

أما مملكة موسكو فسوف تساعد بولندا وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بذلك لأنها سترى كل الشر فى احتلال الأتراك للمجر ،

ومن ناحية أخرى يمكن أن تعترض انجلترا وهولندا على الحملة الفرنسية على مصر ، فلنتكلم أولا عن الهولنديين فهم على أكثر الاحتمالات يستطيعون الاتحاد مع الاتراك للوصول بسفنهم إلى المتوسط وهذا خطر عندما نعلم أن الأتراك لا يملكون صناعة بحرية فالحاجة إذن ستكون حاجتهم كما حدث فى الماضى مع فرانسوا الأول . ثم أن إلحادهم [١] SOCINIANISME الذى يرسخ فيما بينهم والذى يصبح أقل عداء للترك منه إلى الكاثوليكية .. إن قوة هولندا تكمن فى تجارتها خصوصا مع الشرق وسيكون من الصعب على فرنسا فى الظروف الحالية أن تنتزع منها هذه التجارة حتى فى الهند نفسها فلنترك هذا لانجلترا أو البرتغال . أما إذا امتلكت فرنسا مصر فسيكون هذا أفضل لها من امتلاك مدغشقر العقيمة التى ليست فقط أبعد من مصر بل أفضل منها سورانا SORANA فالأولى تمتلك مركزا هشا أما الثانية فانطلاقا منها يمكن السيطرة على الهند كلها لكن هذا ليس له قيمة لأنه ليس لها ممتلكات هناك ، وهنا يكفى لها أن تحوز مصر التى توفر على السفن الدوران حول افريقيا لكى تجذب إليها كل تجارة الهند .. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لانتزاع عرش التجارة

---

(١) إلحاد ليست الترجمة الحرفية لكلمة SOCINIANISME لأن هذه الأخيرة أتت من SOCiN وهو مصطلح دينى إيطالى وكان يدعو إلى عقيدة تتعارض مع ألوهية المسيح ومع فكرة التوحيد بشكل عام .

الهولندية فبالقوة لن نستطيع عمل ذلك اللهم إلا إذا اتحدنا مع انجلترا والبرتغال وهنا سيكون المكسب لهم والتكاليف علينا ..
وباستعراض تاريخ هذا التنافس نجد أن أية دولة لم تستطع أن تنافس هؤلاء الهولنديين المقترين إلى حد الشح والذين يرزقون بالكاد شأنهم فى هذا شأن اليهود إلا ما يكاد يغطى نفقات حياتهم الفقيرة .

لم يبق إذن إلا وسيلة واحدة مباشرة لتحقيق هذا الهدف وهى وسيلة نمتلك كل مقوماتها ألا وهى احتلال مصر والباقى معروف بشكل بديهى فلن يعارضوا حملتنا معارضة جادة وإن استطاعوا فلن يكون إلا بشكل متأخر ، وثانيا عندما تتحدد أوربا وأقصد البيتين الحاكمين فى فرنسا والنمسا ضد الامبراطورية العثمانية لن تقف أية قوة أخرى فى وجه هذا المشروع ، اضف إلى هذا ضعف الاسطول الهولندى فى البحر المتوسط . أما بالنسبة للغزو فلن يكون هذا شيئا سهلا فلانه تنقصهم القوات البرية والضباط القادرون على القتال لن يكون أمامهم إلا المقاومة العاجزة ضد فرنسا فى حرب لن تساندهم فيها أوربا بايجاز لا انجلترا ولا هولندا ولا أية قوة أوربية أخرى تستطيع منعنا من القيام بالغزو .

أما البرتغاليون فيساعدوننا فى البحر الأحمر عند النزول على الشاطئ وكذلك الأسبان بشكل مؤكد ، وعلاوة على التفكير فى

استبعادهم فإن سعادتهم ستكون كبيرة فى التخلص من الخوف من الاتراك ثم الاسهام فى خلاص الجنس البشرى والمسيحية والمساهمة فى ارساء دعائم وحدة صلبة دائمة بين القوتين العظميين في أوربا ، وأكرر وحدة صلبة لأنها قائمة على وحدة المصالح . أما الدانمارك فلا يهمها إلا أمنها وأمن المانيا ، وبالنسبة للسويد فستخضع لارادة [١] الملك المسيحى الراغب فى التجديد والتوسع ، ولذلك ستقف إلى جانب فرنسا .

ويمناسبة ما يقال عن رغبة هذا البلد فى لعب دور كبير فى ألمانيا يجب ألا نصدق ذلك لأن كل أمم أوربا ستتسلح وتقف ضدها . فإذا ما قام البولنديون بقتال الأتراك بمساعدة الملك المسيحى هنا ستجد بولندا خلاصها والسويد مصلحتها وفرنسا النجاح وتركيا الخسارة .

---

(١) يقصد لويس الرابع عشر .

الفصل العشرون

الأمن العام للحملة ينشأ مما شرحناه منذ قليل

LA SECURTT`E PARFAITE DE L' EX

· La s`ecuit`e Panfaite

ITION RESULTE DE CE QUE NOUS VENONS DE DIRE

لأنه لا يخشى جانب أحد فى أوروبا إذا نسقت النمسا وفرنسا جهودهما ، فالبابا ورجال الدين سيقومون بواجبهم وإيطاليا عن بكرة أبيها ليس هناك ما يسعدها إلا هذا ، لكن لنفترض الأسوأ ، من يستطيع أن يمنع فرنسا من التخلى عن الموضوع عندما ترغب فى ذلك ؟ وتركيا لن تلحق بها بشكل أو بآخر إلا بعد الاستيلاء على جيجلى ثم تموين كريت ، ففرنسا رابحة فى كل الحالات فقضيتها عادلة أمام الله وأمام الإنسانية وسوف تعلن بشكل حاسم حسن نيتها ، كما سيكون لها حق معارضة منافسيها ، بل سيكون من السهل عليها استعادة رضاء الباب العالى لأن هذا فى مصلحة الجانبين والعودة مأمونة والبحر مفتوح ، بل فى حالة افتراض أسوأ الظروف مثلا خسارة أسطول أو فقد جيش أليست فرنسا أكبر من تهزها نكبة كهذه ، وبغض النظر عن حسابات الحيطة يمكن القول إن الفرصة فى انتزاع غنيمة كهذه تستحق تماما المخاطرة بجيش بأكمله ، وحتى هذا الفرض فهو مردود لأنه لن يبقى أحد على ظهر سفينة فى البحر بل ليس لنا أن نخشى ما جرى للكردينال بيلاج (١) ولسان لويس . إن مزايا النظام والطاعة والحيطة التى تتميز بها أركان جيشنا والتى امتحنت بها فرنسا قدراتها عشرين مرة تجعل من الصعب المقارنة بين القدرات

(١) الكاردينال بيلاج القائد الروحى لحملة جان دى بريان على دمياط ويعتبره المؤرخون السبب الرئيسى لفشل الحملة على مصر .

المتواضعة لعصر سان لويس وقدراتنا اليوم ، فهو كان مسلحاً بقوات محدودة وكان الأعداء يحكمون السيطرة على البحر والنيل فإذا ما دخل سان لويس عمق الأرض المصرية فقد السيطرة على مؤخرته أى على الساحل ونقاط التراجع وأخيرا ، فإن المقذوفات النارية التى كانت تسمى حيئذ FEU GREGEOIS كانت السر وراء انتصار العرب الذين كانوا ينحدرون فى معظمهم من الشراكسة العتاة ، وهؤلاء تدربوا فى مصر على الحرب بشكل متواصل وكانت سواحل مصر منيعة وكل هذا لم يعد له وجود اليوم.

أخيراً يجب القول إن الحملة ليست فقط في مصلحة الدولة بل إنه الشرف نفسه اللهم إلا إذا رفض الملك نفسه الدخول فى عملية غير مضمونة ، وعلى أية حال فإن سمعته لن تضار فى أى شئ كما أنها لم تضر عندما تراجع فى ديجيلى وفى كريت . يجب إذن المحاولة لمرة ثالثة فى مصر – وهذه المرة لدى إعتقاد إنكم سوف تربحون وانتهى .

الفصل الواحد والعشرون

إن الوقت اليوم ملائم تماما للقيام بحملة علي مصر وربما إذا فلتت الفرصة فشلت الحملة

LEXPEDITOIN D' EGYPTE
EST
AUJUORD"HUI
PARFAITEMENT
- OPPORTUNE ET NE PEUT
ETRE L' OCCASION UNE
- FOIS MANQUEE SERAIT
ELLE PERDUE

إن فرنسا تسعى إلى السيادة وإمتلاك التجارة وخصوصا خراب هولندا ، ويطمح ملكها إلى مجد جدير بحاكم عظيم - فى مصر كل هذا مضمون له ، وعلاوة على هذا تبنى إمبراطورية فى الشرق ، وهو مالا يجب أن ينسى بسبب نتائجه الكبيرة ، إنها الحرب مقدسة الغايات حيث ترمى إلى إعمار الأرض وهو شئ يرضى به ميكليا فيلى نفسه ، وكل (١) المسيحية ستدين له وفى المقام الأول سيضم إليه إيطاليا وألمانيا وهما دولتان تحتاج فرنسا إلى تقدمهما وتعاطفهما . إن الحاكم الذى يأمل أهدافا عظمى كهذه يجذب إليه كل ما تملكه أوروبا من رجال عظام وعقول متميزة وتصبح فرنسا مسرح المجد الحقيقى ومن يصبح بعدها هدفا لشكوك أوروبا .

---

(١) المقصود بالطبع البلاد التى تدين بالمسيحية .

الفصل الثانى والعشرون

وأضيف أنه في كل الأحوال يجب أن يكون المشروع ناضجا

J' AJOUTERAI QU' ELLE TOUTEFOIS DOIT - ETRE MURE

كل شئ جاهز للحملة البحرية ،فالمناطق الساحلية تقدم من الموارد أكثر مما ينبغى ، وإذا كنا نريد أن نتمتع بالسلام من أجل خير أوروبا ما أحسنه من جهد نعطيه لقيمة الحرب تحفظها به من التدهور ، والملك اليوم هو حكم أوروبا فى السلم والحرب وربما يأتى زمن لا يكون فيه كذلك ، فعلى سبيل المثال إذا ما أتحدت انجلترا وهولندا مع النمسا هنا يكون الخطر مانعا لفرنسا من أن تقوم بمثل هذا المشروع . لكن لنفترض أن الأشياء فى هذا الموضوع لن تتغير ، وبالمقابل فإن مصر وتركيا ستتغيران ، فمن المؤكد أن الأتراك - وعلى رأسهم الصدر الأعظم - يتمرنون بكل مواهبهم على إحداث إصلاحات ، وقد تعلموا مسبقا فنوننا الحربية وعندها سيتعلمون علومنا البحرية وتساعدهم فى هذا الطبيعة وبعدها سيستفحل شرهم ، فإذا ما وصلت الأمور إلى هذه النقطة سيرتج العالم المسيحى وسيكون الوقت قد فات وسيكون جهد ضائع أن نفكر جديا فى هذه المشاريع التى ننظر إليها بعدم اكتراث ، فما المدهش فى هذا إذا ما ارتدى الأتراك عمامة أليس لهم رءوس مثل رءوسنا ؟ فإذا ما خطر ببالهم مرة تحصين مصر - وهو أمر يستغرق عاما من الزمن - سنقول وداعا للأمل فى المسيحية التى أراها مهملة ووحيدة .

الفصل الثالث والعشرون

بعد هذه الإيضاحات هل أراني في حاجة للكلام عن مشروعية الخطة

APRES CES EXPLICATIONS ;
AI - JE LE DROITAI - JE LE DROIT
DE CETTE EXPLIFATION ?

ما أكثر عدلا من حرب مقدمة ، مشروع لخير الإنسانية ومصلحة المسيحية وخلاص التعساء الذين يرجون مساعدتنا من أجل القبر المقدس (١) ومن أجل الانتقام من غطرسة وإهانات البرابرة والتى عانت منها فرنسا نفسها ، ومن ناحية أخرى لا أعتقد أن هناك اتفاقات خاصة تربط فرنسا بالباب العالى ، فإذا ما كانت الحملة على كريت ود يجلي مشروعة فالحملة على مصر ليست أقل مشروعية من هذا أو ذاك . وفى الميزان الذى سوف تزن فيه حكمة الملك هذا المشروع يجب أن يفكر فى خلاص الآلاف من البشر ، بل إن السماء نفسها تنتظر قراره ، فها هنا المجد والمآثر والقيم والإيمان ، وهنا التكفير عن سىء الأعمال ، هنا أخيرا الخلاص .

---

(١) المقصود بالطبع قبر السيد المسيح وهو تعبير مجازى يعود للعصور الوسطى والحروب الصليبية ويعبر به عن مدينة القدس .

الفصل الأخير

بدون عنوان فى النص الأصلى

أعتقد أنه لم يكن أبدا شرف الرب وشرفنا هكذا معنيان ، وأنه لم يكن أبدا لدينا هدف أكثر عدلا ولا أكثر قداسة قد خطر على الفكر الإنسانى .

إن التعبيرات تعجز عن الخوض بعيدا فى هذا المجال ، وتتوارد على الخاطر النتائج الهائلة التى ستتمر عنها هذه العملية بحيث تعجز عن التعبير عنا أية لغة . أن هذا لهو كمال الفطنة وهو على قدر النفوس الكبيرة التى تنير وتدير شئون الإنسانية ، وعلى عاتق هؤلاء الذين يستطيعون بنظرة عين الإحاطة بكل شئ . وكما هو منطوق فى الكتب الكبرى ولم يبق لنا إلا أن نرجو الله أن يرشد عقولهم فى هذا الامتحان ، فمن أجلنا ، ومن أجلهم لم يكن الله ليقدم نعمة أكثر وضوحا .

هذا الملحق الخاص يجيب للقارئ على سؤال مهم قد يطرحه، ما مصير المشروع بعد وفاة صاحبه ورحيل من كان موجهاً إليه ؟ وإليك أيها القارئ العزيز الإجابة على هذا السؤال .

عندما توفى ليبنيز بالشيخوخة أو بالحسرة أو بالاثنتين معاً عام ١٧١٦ أى عاماً واحداً بعد وفاة لويس الرابع عشر كان مشروعه قد مات سياسياً بموت صاحبيه إلا أن الفكرة - شأنها شأن أية فكرة - لا تموت برحيل صاحبها ، صارت حلماً كبيراً يداعب خيال ليس رجال السياسة، بل رجال الفكر والفن والأدب .!

نعم ، أعاد مشروع ليبنيز مصر إلى أذهان مفكرى وفلاسفة ذلك الزمان فى فرنسا وأوربا بعد بيات شتوى طويل سببه ظلام الاحتلال العثمانى لمصر عام ١٥١٧ الذى جعل من وادى النيل مجرد ولاية عثمانية طالما خلط بسببه فنانو أوربا وأدباؤها بين ما هو مصرى صميم وبين ما هو تركى عثمانى .

على أن ظاهرة عودة مصر كمصدر إلهام فنى وفكرى إلى عالم الفكر والفن الغربى أوائل القرن الثامن عشر كانت وراءه عوامل أخرى كثيرة ومعقدة ألخصها للقارىء فى اثنين فقط .

١ - ارتباط ظاهرة المد العثمانى فى أوربا بالإسلام مما شجع ظاهرة الارتحال إلى الشرق لاستكشاف عالم الإسلام .



الدوق دى شوازول من أعظم رجال السياسة فى فرنسا وصاحب فكرة تبنى مشروع ليبنيز لغزو مصر وأول من أرسل رجاله للتجسس فى مصر

٢ – الدور الذى لعبه شوازول Choiseul فى العمل على تطبيق مشروع ليبنيز .

أما فيما يخص العامل الأول فقد كانت السطوة العثمانية تحمل فى طياتها معانى وأخيلة كثيرة ارتبطت فى الذاكرة الجماعية الغربيـة بالإسـلام والرسـول وبالحضارة الشـرقية بشـكل عام . وجاءت هزيمـة العثمانيين أمام أبواب ڤيينا عام ١٦٨٣ وذلك للمرة الثانية(١) لتعطى للذاكرة الجماعية الغربية مادة خصبة وهـائلة لإعادة الـروح إلى فنـونه وآدابه مما ساهم – ضمن عـوامل أخرى – فيما سيعرف باسم «عصـر التنـوير» le siéle des Lumiéres فيما بعد وطوال القرن الثامن عشر .

ولابد هنا أن ألفت نظر القارىء إلى حادثة مهمة ، وهى أن هزيمة العثمانيين أمام أبواب ڤيينا ، أو انسحابهم ، قوبل بفرح غامر فى أوربا كلها ، إلا فرنسا ، التى أبدت تحفظاً بل – وهذا ما ألفت إليه نظر القارىء – إن لويس الرابع عشر بعد رفضه لمشروع ليبنيز اختار هذه اللحظة بالذات ليجدد مع الباب العالى اتفاقية

---

(١) كانت المرة الأولى عام ١٥٢٩ ، وربما كانت كلمة هزيمة غير دقيقة فى هذا السياق ، لأن الاتراك لم يُهزموا فى المرتين وإنما انسحبوا للعودة مرة أخرى بشكل أفضل وهو تكتيك عسكرى معروف فى حروب العصور الوسطى ولكن فى الغرب يستبعدون كلمة انسحاب لأسباب معروفة .

«الامتيازات» Capitulations التى تنظم أوضاع الأوروبيين المسيحيين في الأراضى العثمانية[1] ، واحتفلت باريس بذلك احتفالاً عظيماً دُعى اليه عظماء بلاط الملك الشمس[2] - كما كان يلقب لويس الرابع عشر - من رجال دولة وفنانين وفلاسفة وأدباء وكلنا يعرف كيف كان بلاط لويس الرابع عشر مدرسة بأكملها فى الفكر والفن ، من هذا البلاط خرج وتخرج كل من حملوا اشعاع النور فى عصر التنوير ، وكل من حمل - وبالسخرية القدر - أفكار العدل والحرية والمساواة التى ستشعل الثورة الفرنسية فيما بعد ، وقد اعطت هذه الاحتفالات العظيمة بالإضافة إلى تراجع الجيوش التركية امام ڤيينا لمفكرى وفلاسفة فرنسا الرغبة لاستكشاف ثم تحليل عالم الشرق ودنيا الإسلام ، فما أن مرت سنوات قليلة حتى ترجم جالان Galland عام ١٧٠٤ «ألف ليلة وليلة» ليكتشف الغرب هذا الكنز الهائل من الصور والأشعار والحكم والأمثال الشرقية وقد أدى النجاح منقطع النظير لهذه الترجمة إلى أن مشاريع ترجمة عيون الفكر العربى والشرقى صارت من موضات هذا العصر وليس أدل على ذلك أن دى رييه Du ryer أعاد طبع

---

(١) كان الاتفاق قد وقع قبل مائة عام من هذا التاريخ أى عام ١٥٦٩ بين فرانسوا الأول والسلطان العثمانى .

(٢) بالفرنسية Le Roi - SOPeil



ديدرو صاحب أول موسوعة فى فرنسا والغرب تنشر معلومات وحقائق عن تاريخ وشعب مصر ضمن اهتمام فلاسفة عصر التنوير بمصر

ترجمته للقرآن فى نفس الفترة رغم أنه كان قد أصدرها لأول مرة عام ١٦٤٧ فى باريس تلك الترجمة التى تعتبر بحق أول ترجمة غربية للقرآن(١) ، ثم يصدر العملاق مونتسكيو Montesquieu عام ١٧٢١ كتابه الشهير «رسائل فارسية Lettres persannes ليكون بداية موجة جديدة فى الفن عُرفت باسم «النزعة الشرقية» L éxotisme oriental ،وقد بلغت هذه النزعة أوجها عندما أصدر ڤولتير voltaire سلسلة من الأعمال العظيمة مستوحاة من الشرق والإسلام أشهرها «زائير» عام ١٧٣٢ Jaine و«محمد» عام ١٧٤٢.

وقد رافق هذه الموجة ، وربما كان احدى نتائجها نزعة « الارتحال إلى الشرق » فنجد نوعية جديدة من زائرى الشرق تختلف عن نوعية التجار الذى اعتادوا موانىء

---

(١) بعد المحاولات الأولى ترجمت بعض اجزائه باللاتينية بواسطة أبيه دي كلوني L'Abbé de cluny وبطرس الفاضل Pi'erre Le vénérable الذى عاش بين ١٥٩٢ - ١١٥٦ ولم تكن هذه الترجمة الجزئية المبكرة مخصصة إلا لتدعيم محاورات العلماء المسيحيين ضد المسلمين فى مجادلاتهم الفلسفية ، وكان لابد من الانتظار أربعة قرون كاملة حتى يذهب أندريه دى رييه André du Ryer إلى مصر قنصلاً فيعيش طويلاً فى القاهرة القديمة ويتقن العربية ثم يعود إلى أوربا مترجماً القرآن ترجمة كاملة عام ١٦٤٧ ، ويكتب عدة كتب عن مصر تعتبر بحق علامات فى طريق معرفة الغرب وفرنسا بمصر عامة ووجهها العربى الإسلامى خاصة

الاسـكندرية ودميـاط وبيـروت وعكا وبيريه منذ العصور الوسطى وهم في أغلبهم تجار وبحارة من نابولى والبندقية ومرسيليا .

هذه النوعية الجديدة من زوار الشرق يمكننا أن نطلق عليها اسم «رحالة» voyageur لأنها تأتى إلى الشرق مستهدفة فى الغالب ما يمكن أن نسميه «منفعة الاقتناء الثقافى» من تحف وآثار ومخطوطات ثم التعرف على أصل البلد عن كثب أما تجارتهم الحقيقية فكانت تدوين انطباعاتهم ثم نشرها فى الأسواق المتعطشة لمعرفة الشرق وأهله .

وكان على رأس هؤلاء الرحالة الجدد ، أو لنقل «التجار الجدد» الآباء والقسس الذين أتوا مصر والشرق لأهداف متعددة لا محل هنا لتناولها ، وعلى رأس هؤلاء أيضاً قناصل الدول الأوربية أنفسهم الذين اتاحت اتفاقية «الامتيازات» التى وقعها الباب العالى مع فرنسا ودول أوربا الغربية والتى تخول لهؤلاء حرية الحركة والتجارة وخصوصاً حق الحماية فى الاقامة وفى السفر ، وكان هذا هو الخطوة الأولى لما يعرف الآن فى عالم الدبلوماسية بالحصانة الدبلوماسية L' imunité dipl'omatique وتحت يدي مراسلات ووثائق تخص هؤلاء[١] فى مصر ولبنان ربما

تكون موضوعاً لكتاب فى المستقبل .

أما أشهر هؤلاء القناصل فهو القنصل الشهير بونوا دى ماييه وكان أنشط قناصل فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر ليس فقط فى مصر بل فى الشرق كله[٢]

بوفاة لويس الرابع عشر يمكن القول إن عصر خلفه لويس الخامس عشر ، هو عصر اكتشاف لمصر خاصة وجهها العربى

---

(١) أشهر هؤلاء الرحالة على الإطلاق هو الفرنسى النورماندى بول لوكا Paul Luca (١٦٦٤ - ١٧٣٧) الذى جاب مصر أوائل عام ١٦٩٩ خاصة القاهرة والفيوم والاسكندرية ، وعندما عاد إلى فرنسا ، شاءت الاقدار أن يكون لويس الرابع عشر فى أواخر حكمه وقد راحت عنه فتوة الشباب وحب الفتوحات وبات ميالاً للعلم والمعرفة ، وربما قد يكون خالجه بعض الندم على رفض مشروع ليبنيز ، فيقرب منه الرحالة الشاب ويعجب بحكاياته عن مصر وأهلها ويعينه «مندوبا لآثار الملك L' antiquaire du Roi ويكلفه برحلة ثانية إلى جمع آثار ومخطوطات فيعود هذا إلى مصر ويقيم بها حتى عام ١٧١٨ ويعود إلى فرنسا بكنوز هائلة وكتاب مهم يحكي فيه أحوال وطبائع أهل القاهرة ليجد أن الملك الشمس قد مات منذ ثلاثة أعوام ، وينشر كتابه عام ١٧١٩ ، هذا الكتاب الذى يعتبره المؤرخون وعلى رأسهم المؤرخ العظيم جان مارى كارى Jean -Marie - Carré فى كتابه الشهير « الرحالة والأدباء الفرنسيين فى مصر » ص ٤٧ الجزء الأول أن لوكا هو أول من اشاع جنون السفر إلى مصر .

(٢) يعتبر دو ماييه أشهر قناصل فرنسا فى ذلك العصر ، وقد وصل مصر عام ١٦٩٢ وبقى بها ستة عشر عاماً كاملة ويعود سبب شهرته إلى



الملك فؤاد الأول أول رجل دولة مصرى يطلب دراسة مشروع غزو مصر فى فرنسا

المسلم ، وهذه العوامل السابقة التى ذكرناها والتى أدت إلى تلك الموجة الهائلة من النزوح إلى الشرق ثم الرحلات إلى مصر ، هى بعينها التى حدت برجل كبير وسياسى داهية إلى أن يجعل من مصر محوراً لسياسته الخارجية ، هذا الرجل هو وزير خارجية لويس الخامس عشر choiseul شوازول (١٧١٩ - ١٧٨٥) .

وقد تقلد الرجل مناصب عدة حساسة فى حكومة الملك فمن وزارة الخارجية بين عامى ١٧٥٨ - ١٧٦١ ، إلى وزارة البحرية بين عامى ١٧٦١ - ١٧٦٨وأخيراً وزارة الحرب المهمة من عام ١٧٦١ وحتى عام ١٧٧٠[١] .

وخلال هذه الوزارات الثلاث كان شغله الشاغل هو كيفية منع سقوط الدولة العثمانية التى كانت قد دخلت منذ أواخر القرن السابع عشر مرحلة خطيرة من الضعف والوهن ستؤدى فيما بعد إلى حالة ما يعرف باسم «الرجل المريض» .

= اتقانه العربية ولهجة أهل القاهرة ونهمه الشديد لجمع التحف والمخطوطات، ثم تأليفه لكتاب خطير ذى عنوان سيصبح فيما بعد عنواناً تاريخياً وهو « وصف مصر» la déscription de Légypte وفي هذا الكتاب الهائل يقترح فيه على حكومة لويس الخامس عشر نقل أحد آثار مصر المهمة إلى باريس لتزيين أحد شوارعها ويقترح بالتحديد عمود السوارى بالاسكندرية وهى الفكرة التى أخذها ديزيه Désie فيما بعد مقترحاً على نابليون نقل احدى مسلات الفراعنة إلى باريس .

(١) وهى الوزارة التى ضم فيها جزيرة كورسيكا نهائياً إلى فرنسا .

وكان شوازول يريد منع سقوط الإمبراطورية العثمانية ليس حبًا فيها ولكن كى لا تقع فريسة للروس فى الشرق والإنجليز والنمساويين فى الغرب .

وليسمح لى القارىء قبل الإفاضة في علاقة شوازول بمصر أن أذكره بما قلناه فى مقدمة هذا الكتاب عن الدراسة التى طلبها الملك فؤاد الأول فى العشرينات من هذا القرن من المؤرخ الفرنسى فرانسوا شارل رو Francois Charles Roux عن أصول « فكرة غزو مصر فى عصر الملك لويس السادس عشر فبعد أبحاث مستفيضة نشر شارل رو دراسته تحت رعاية الملك فى العهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٢٩ . وفى هذه الدراسة القيمة عرض دقيق لدور شوازول ووزراء آخرين تأثروا بشخصيته وحنكته فى بلاط الملك لويس الخامس عشر . وعلى رأس هؤلاء دو سارتين De Sartine وزير البحرية وصديق شوازول الذى كان هو الآخر مولعًا بمصر .

ولكن كيف أتت فكرة غزو مصر لشوازول ودو سارتين ؟ في واقع الأمر إن ما كنا قد عرضناه وقد لاحظه القارىء من أن سياسة فرنسا تجاه الباب العالى ، كانت دائما سياسة مساندة ومساعدة حتى أنها أصبحت تقليدًا فى السياسة الخارجية لفرنسا. وكان ذلك فى أزمنة كانت فيها الإمبراطورية العثمانية

قوية أو لنقل متماسكة ، أما الآن فالأوضاع متدهورة والحرب بين السلطان وكاترين الثانية إمبراطورة روسيا على الأبواب بسبب رغبة الروس في ضم القرم إليهم .

وأصبح لزامًا على شوازول إما أن يغير من سياسة بلاده التقليدية تجاه تركيا وإما أن يواصلها مع توقع أن تضيع هيبة فرنسا إذا ما ساندت الجانب الضعيف في الحرب . وهنا يقرر شوازول بدهاء شديد أن تواصل بلاده مساندة تركيا بل مساعدتها بالخبراء والسلاح وفي نفس الوقت طلب من سفيره في استانبول ووزراء آخرين أن يعدوا له تقريرا عن وجهة نظر كل منهم في كيفية التعامل مع مصالح فرنسا خاصة في الشرق حال سقوط تركيا . وكان رد الجميع هو ضرورة احتلال بلد ما في الشرق كتعويض لفرنسا عن مساعدتها لتركيا .

ثم اندلعت الحرب عام ١٧٦٨ بين الترك والروس وبعض المؤرخين يعتقد أن فرنسا هي التي أوعزت للسلطان بإعلان الحرب حتى تنفذ مخططها باحتلال مصر .

كانت كل تقارير دو سارتين ومندوبه في الوزارة سان بريست Saint Priest هي أن أغنى أقاليم الإمبراطورية المريضة هي القرم ومصر ، وبما أن القرم ذاهبة لا محالة إلى فم الدب الروسي ،

فعلى فرنسا أن تعمل جاهدة لاحتلال مصر .

ويقول شارل رو فى دراسته ، إنه ليس هناك ما يثبت أن شوازول عرض الفكرة على لويس الخامس عشر ، لكن هناك ما يدل على أن دو سارتين جُن بالفكرة وأرسل جاسوساً أو دبلوماسياً أو الاثنين معاً إلى مصر والبحر الأحمر وجدة هو البارون دى توت De tott الذى أرسل تقارير على درجة عالية من الخطورة مصحوبة بخرائط دقيقة لتحصينات القاهرة والاسكندرية ورشيد وجدة .

وهناك دراسات أخرى أو قل تقارير وخطط أخرى تقترح الإسراع بالغزو وعدم انتظار نهاية الحرب بين الروس والأتراك ومنها تقرير سان ديديه الشهير Saint Didier الذى يعرض فيه كل ما كان ليبنيز قد قدمه فى مخطوطه إلى الملك الشمس حتى أننا نكاد لا نفرق بين تقرير سان ديديه ومخطوط ليبنيز .

وتجمعت كل التقارير الرسمية وغير الرسمية ، وتقارير الجواسيس لدى شوازول ويبدو أن الرجل عقد العزم على اتخاذ إجراء حربى سريع تجاه مصر ، فكل التقارير التى أوردها بالتفصيل شارل رو فى دراسته ، وكل مراسلات شوازول تنم عن رغبة فى العمل بسرعة حتى قبل نهاية الحرب . وهنا يطرح السؤال

نفسه ، ولماذا إذن لم يقم شوازول بحملته العسكرية على مصر رغم وجود مناصر قوى له وهو وزير البحرية دو سارتين ؟

فى الواقع إن رجلاً مثل شوازول استطاع بدهاء وحنكة وشخصية شديدة المراس أن يجعل من فرنسا لويس الخامس عشر امتداداً لفرنسا العظمى التى كان يحلم بها لويس الرابع عشر ، وإذا كان شوازول قد استطاع إهداء فرنسا حلمها الكبير وهو ضم كورسيكا ، فإن ملكًا مثل لويس الخامس عشر لم يكن ليتركه يقوم بحملة على مصر تجعل منه فى النهاية بطلاً قوميًا يصعب إزاحته وبدأت المشاكل فجأة تدب بين الوزير الكبير والملك ، وانتهى الأمر ليس فقط بإبعاد شوازول بل نفى نهائيا خارج فرنسا ، وبالطبع مات المشروع ، مشروع شوازول ، ومات الملك بعد أربعة أعوام من نفى شوازول أى فى ١٧٧٤ . وعندما تولى لويس السادس عشر العرش احتفظ بأغلب وزراء سلفه الذين حاولوا من جديد إعادة المشروع المصرى إلى جدول أعمال الوزارة الجديدة خاصة أن فرنسا قد فقدت أغلب مستعمراتها فى أمريكا ثم إن خسارة الأتراك أمام الروس وضياع القرم كان لابد أن يحول أنظار فرنسا ناحية المشروع القديم ، وهنا تندلع الثورة الأمريكية ضد الاحتلال الانجليزى ويقرر الملك أن يساند الثوار فقد كان فى



الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا الذى فى عهده أجرى شوازول ووزراء البحرية والحرب وسفراء وجواسيس دراسات عن المشروع . وأحد هؤلاء طرح عليه فكرة نقل عمود السوارى بالاسكندرية الى أحد ميادين باريس ..

حاجة ماسة لأى نجاح خارجى يعزز موقفه داخلياً خاصة وأن وزراء مالية متعاقبين قد فشلوا فى حل الأزمة الاقتصادية الخانقة وكأن بعضهم قد شعر بقرب الانفجار ، وكأن المشروع المصرى الذى كان ولابد أن ينفذ ليس فقط رأس الملك بل العرش كله ، أصبح هرطقات فلاسفة وأحلام رجال سياسة مجانين ، فانظر عزيزى القارىء كيف أن القدر قد لعب لعبة غريبة فى هذه الأيام . ذلك أن شاباً صغيراً كان يتردد على مجالس وصالونات شوازول ، وكان إعجابه به يفوق الحدود ، بل كان يشعر أن هذا الرجل يكاد يقترب من مصاف آلهة اليونان فهناك شىء درامى فى مشاريعه هناك رائحة التاريخ فى كلامه ، هذا الشاب الصغير يدعى شارل موريس واسم الشهرة الذى تعرفه ولا شك أيها القارىء العزيز ، هو تاليران ، نعم ، أحد صناع الثورة الفرنسية وأحد ضحاياها فى نفس الوقت ، كان تاليران الغريب قد تربى وتعلم وترعرع فى جوكنس كى يصبح يوماً ما من أحد القادة الروحيين للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية ، لكن الرجل عاش داخل الكنيسة بقلبه وكان عقله ، كل عقله ، مع ڤولتير وقواميسه ومع ديدرو وموسوعاته ، ومع مونتسكيو وروح قوانينه ، وفوق كل هذا كان إعجابه بشوازول يفوق كل الحدود ، وكانت مصر محور محادثاتهم ، وكان المشروع المصرى من ليبنيز إلى تقارير سان ديديه وتوت يأخذ بألبابهم .



لويس السادس عشر ملك فرنسا الذى فى عهده استكملت الدراسات عن المشروع خاصة دراسات وزير البحرية سارتين الذى كاد ينفذ المشروع لولا قيام الثورة الفرنسية .

وكأن الثورة التى كان يعد لها مع رفاقه لن تكون فى حاجة إلا لهذا المشروع المهم ، وعلى نحو ما يروى تاليران فى مذكراته وما كُتب عنه ثم ما يقرر شارل رو فى أن تاليران دفع بالمشروع المصرى . أما مجلس حكومة الإدارة Directiore كي تنتهى فى فرنسا الثورة من التخلص نهائيا من عدوها اللدود « انجلترا » وكانت انتصارات نابليون فى إيطاليا وعودته إلى باريس كأحد أكبر الفاتحين قد بدأت تجعل منه رجلاً يخاف منه أعداؤه السياسيون لأنهم كانوا قد تحولوا من خصوم سياسيين له عندما كان هو على جبهات القتال فى إيطاليا يقاتل النمساويين أشرس أعداء فرنسا وعندما عاد إلى باريس أصبح نابليون العدو رقم واحد لكل أعضاء حكومة الإدارة .

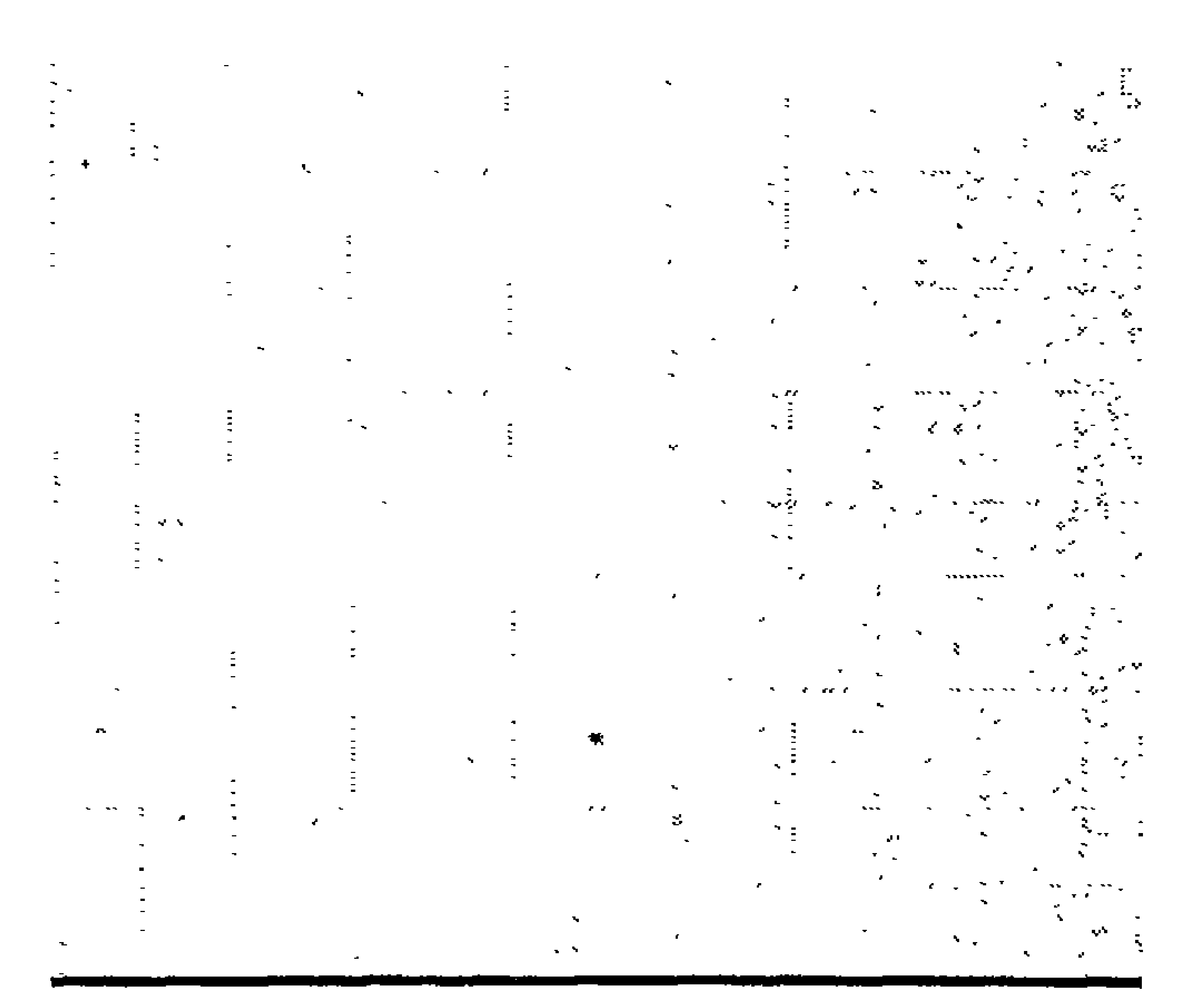
ولذا رأى بعضهم وربما يكون منهم تاليران نفسه الذى كان وزيراً للخارجية – أى نفس المنصب ونفس المكان الذى كان يجلس فيه أبوه الروحى شوازول – أن التخلص من نابليون يكون بابعاده فى مهمة عسكرية مغرية فقدم تاليران لمجلس الإدارة ولنابليون المشروع ومعه التقارير السابقة القديمة كلها ، لكن ليس من الثابت أن مشروع ليبنيز قد كان محور هذه الاجتماعات وإنما لا شك ربما يكون قد ورد اسمه أثناء الجلسات ، لكن من الثابت على نحو ما بينا فى مقدمة هذا الكتاب ، إن نابليون لم يتسلم المخطوط إلا

فيما بعد، بعد أن أرسله له الضابط الفرنسي مورتييه Mortier عندما كان هذا الأخير حاكما على هانوفر مسقط رأس ليبنيز . بقية القصة نعرفها من مقدمة هذا الكتاب .

أما الآن لابد من كلمة أخيرة عن مصير تاليران ، الذى ما أن عاد نابليون من مصر وبعد الفشل الذريع لحملته فى الشرق يبدو أن تاليران قد شعر أن نابليون لم يكن على مستوى المهمة وربما كان نابليون فى واقع الأمر متلهفًا على عرش فرنسا أكثر منه على ولاية مصرية حتى لو كانت تلك الأخيرة ستدخله التاريخ على نحو ما فعلت مع الاسكندر وقيصر ، فعودة نابليون الغريبة إلى فرنسا ولم يمر على وجوده فى مصر إلا عام واحد ، كانت مقدمة لليلة ١٨ بروميز 18 Brumaire الشهيرة التى قام فيها نابليون بانقلابه على حكومة الإدارة ونصب نفسه قنصلاً عامًا على فرنسا تمهيداً لإعلان الإمبراطورية ، ورغم اشتراكه مع نابليون فى انقلاب ١٨ بروميز فإن الرجلين اختلفا بسرعة ، وفى عام ١٨٠٨ كان نابليون الذى قد أصبح امبراطوراً قد قرر طرد تاليران من الحكومة . بالطبع هناك مسائل المنافسة والصراع الشخصى بين رجال الإمبراطور ولكن هناك أيضا نظرة كل منهما إلى موقع ودور فرنسا فى العالم فلا شك أن الخلاف بين الرجلين كان عميقًا إلى حد أن تاليران بعد هزيمة نابليون وإعادة الملكية إلى فرنسا وقف

تاليران مع الملكية العائدة ضد كل توقعات رفاقه أيام الثورة وأيام عز نابليون ، ويصبح تاليران وزيراً للخارجية فى عهد الملك لويس الثامن عشر ولكن ما فعله كان ضد طبيعة الأشياء فنجد أن كل نشاطات تاليران فى الخارجيـــة أو فى مجـــلس النواب أو فى الصالونات كانت تنصب على أفكار غير ملكية بل انه يعمل سرا على تأسيس ما يعرف باسم « ملكية يوليو » وهى ملكية وراثية لكنها متأثرة بالأفكار الثورية للجمهورية وتأخذ من نابليون قائداً روحيا لها .

ولم يكن الحلم المصرى بعيداً عن أعين تاليران بل ربما يكون سبباً فى تدهور علاقاته بأصدقائه وعلاقاته بالدول الأجنبية عندما تولى منصب وزير الخارجية مرتين فى عهدين مختلفين . ويشاء القدر أن ملكية يوليو التى ساهم فى تأسيسها فى فرنسا عام ١٨٣٠ ، تبدأ أول ما تبدأ من مشروع كبير لغزو الشرق وبدأت فى نفس العام بحملة عسكرية أخرى لغزو الجزائر ، وذلك الغزو الذى نعرف أنه كان بداية للسيطرة على المغرب العربى كله .ويموت تاليران بعد سنوات أربع من بداية المشروع الفرنسى فى المغرب أى عام ١٨٣٤ ، تاركاً للسان سيمونيين مهمة مواصلة المشروع الفرنسى فى مصر ولكن بسلاح العلم والبناء . ولكن لهذا حديث آخر ربما يهم أن نخصص له كتاباً فمن ١٨٣٠ وحتى حرب السويس ١٩٥٦ جرت مياه كثيرة تحت الجسر .



هـوامش على المخطـوط

تحل فى عام ١٩٩٨ ، أى بعد أربعة أعوام ، الذكرى المئوية الثانية لحملة نابليون بونابرت على مصر . وقد رأينا أهمية هذا المخطوط الخطير فى الدرس العام لتاريخ العلاقات المصرية الفرنسية وتاريخ الحملة الفرنسية على وجه الخصوص، وتجرى الاستعدادات منذ الآن فى مصر وفرنسا للاحتفال بهذا الحدث التاريخ المهم .

وبالطبع ستخرج الوثائق من البلدين ، وسينبرى الشراح والمنظرون فى الإسهاب لشرح تاريخ معاد دون الالتفات إلى افكار ليبنيز فى هذا الشأن، تلك الأفكار التى يلحظ القارىء الآن بعد قراءته لهذا الكتاب ، أنها أثرت تأثيراً واسعاً فى جيل وبل أجيال بكاملها من السياسيين والعسكريين الفرنسيين إبان العصر الملكى فى فرنسا ، فما أن انقضى ذلك الزمن وأتى عصر الثورة كان المخطوط وصاحبه والبلد موضوع المخطوط على مائدة البحث، فما أن حط نابليون رحاله إلى مصر حتى عاد بعد سنين ثلاث ليفتح الباب على مصراعيه أمام ثورة هائلة فى الفن والأدب اسمها عصر الرومانسية وعصر الـ txotisme وتصبح مصر محوراً لاكتشافات تاريخية هائلة وموضعاً فنياً جديداً فى الفنون والآداب مازلنا نفتش حتى اليوم بعضاً من جوانبه وإن خفت كثيراً عما قبل.

فمخطوط ليبنيز ليس مجرد مشروع كتاب كتبه أحد الفلاسفة وقدمه إلى أحد الملوك ، بل هو بداية حركة عملية منظمة ومكتوبة لمشروع قديم قدم التاريخ ويهدف لربط مصر بأوربا وبالتالى العالم العربى معها ، أو لنقل مشروعاً غربياً شمالياً للسيطرة على جنوبى المتوسط وذلك ضمن السلسلة الديالكتيكية بين شمال المتوسط وجنوبه عبر التاريخ .

المشروع الليبنيزى إذن هو بداية عملية أى -Commencen ent Pratique المشروع النظرى الأدبى القديم . وهذه البداية أخذت شكلاً نظرياً تخطيطياً فى غاية الدقة وعلى درجة عالية من الفهم والوعى لأحداث التاريخ وظروف مصر والمنطقة المحيطة بها رغم ظهورها المبكر فى أواخر القرن الثامن عشر .

مشــروع ليبنيز هــو بدايــة عمليــة فــى ســياق الحــركة le mouvement الزمنية التى تربط بشكل حتمى ، شمال المتوسط بجنوبه وهو البداية العملية التى اتخذت هذا الشكل شبه الاستراتيجى التخطيطى والتى كانت تهدف وربما للمرة الأولى منذ حملة جان دى بريان الصليبية على مصر إلى التنفيذ العسكرى الفورى. فلم تكن خطته مجرد مناظرات فلسفية أو سفسطات من عنديات ليبنيز وإنما خطة لم تدع شيئاً لحكم المصادفات أو شيئاً تحت رحمة الحظ العاثر .

هذه البداية العملية التى اتخذت شكل الخطة متقنة الأعداد، كان لها - كما أسلفنا - مردودات وأصداء سياسية وعلمية وفنية وأدبية واسعة النطاق اتخذت كلها أشكالاً عملية تنفيذية أيضاً على غرار المشروع الليبنيزى فمن تقارير القناصل فى القرنين السادس والسابع عشر نجد أننا أمام كتب علمية لرحالة ومستكشفين على درجة عالية من دقة الوصف وعمق التحليل كسافارى Savary وڤولنى Volney وغيرهما ، ومن حركة الـ Exo Tisme الأدبية فى القرن الثامن متمثلة فى عيون الأعمال الأدبية الأوربية المستوحاة من الشرق كديوان جوته Divan ورسائل فارسية Lettres Persannes لمونتسكيو و«محمد» و«زائير» لفولتير وكلها مستوحاة من الشرق وكلها تخلط الشرق بالإسلام وتخلط العربى بالتركى والمصرى بالمغربى لأن هذه الموجة فى الفن المستوحى من الشرق كانت موجة «الحلم» وبعدها نجدنا أمام موجة تنفيذية علمية إذا صح التعبير فنجد موجات من الكتاب الأوربيين فى موجة جديدة من Exo Tisme فى كل أفرع الفنون ، لكنهم هذه المرة كتاب ورحالة من الطراز الأول الذى لا يكتفى فقط «بالحلم» بل يحاول أن يخلقه لنفسه وذلك بالترحال إلى بلاد أخرى وعالم آخر يستوحى لأدبه ولنفسه صوراً جديدة وروائح وعطوراً جديدة لم يكن ليعرفها لو اكتفى «بالحلم» على طريقة القرن الثامن عشر .

هذه الموجة من عالم «الحلم» إلى عالم «تجسيد الحلم» نجدها أيضاً فى السياسة فحلم ليبنيز نفسه تحول إلى واقع ما تحمله الكلمة من معنى فى عملية الحملة البونابرتيةّ على مصر عام ١٧٩٨ فإذا ما مرت الحملة نفسها وكأنها حلم لم يستغرق سوى سنوات ثلاثة كانت موجة السـان سيمونيين وما نعـرفه عنها من خـلال مارآه القارىء من الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، وهؤلاء انفسهم عاشوا حلم استاذهم العظيم سان سيمون Saint Sim-on حلم خلق عالم جديد تذوب فيه الفروق بين الطبقات ويكون عموده الفقرى هو العمل والإنتاج وتكون المحبة والتسامح منهجاً للبشرية على نحو ما كتب هو نفسه فى كتابه le nouveau Christianisme تحول اتباعه إذن من الحلم إلى التطبيق فرحلوا إلى مصر يطبقون فيها أفكارهم عن الحضارة والمدنية فكانت قناة السويس ، وكان سد قناطر القاهرة وكانت عشرات المدارس والمعاهد والكتب والمؤلفات فى التحديث والتنوير . فمخطوط ليبنيز إذن بما قلنا عنه بأنه بداية عملية هائلة فى حركة مستمرة منذ الأزل فى الصراع الحضارى بين الشمال والجنوب ، هذا المخطوط أو كل هذه الخطة تستحق إذن أن توضع فى إطارها

الصحيح وداخل ظروفها الصحيحة وأن تفهم فى شكلها العام وفى سياق حضارى متكامل سياسياً وعلمياً وفنياً إلخ .

من هنا كانت الحاجة ، ونحن على أعتاب المائة الثالثة من تاريخ الحملة الفرنسية ، أن يكون الاحتفال بنهاية المائة الثانية احتفالاً حضارياً أى علمياً بالدرجة الأولى ، فليس من المعقول أن تمر مائتا سنة على الحملة الفرنسية ومازلنا نجد فى مصر من يأخذها على أنها مجرد غزو عسكرى بحت ، وليس من المعقول أن تمر مائتا سنة ونجد من لا يعرف من هم السان سيمونيون وعلاقتهم بنابليون وعلاقتهم بالحملة الفرنسية بشكل عام ، وليس من المعقول أن تمر مائتا سنة على الحملة أى مائتى سنة من العلاقات «الحضارية» أى علاقات الأخذ والعطاء الحضارى بين مصر وفرنسا ونجد أن من يعرف بمشروع ليبنيز فى فرنسا لايتجاوز عددهم عشرة أما فى مصر فهم لايتجاوز أشخاص ثلاثة. ليس من المعقول أن نركز من أحاديثنا فى القاهرة على ثورتى القاهرة ضد «عساكر بونابرته» حتى نستعيد تعبير الجبرتى الشهير ، وننسى أن أول مطبعة عربية وأول حرف مطبوع جاء مع الضابط الكورسيكى قصير القامة ، بل إن هناك من ينسى أن هذا الضابط الفرنسى نفسه أصدر أول منشور له موجه إلى الشعب المصرى باللغة العربية .

وقد حيا فيه الشعب نفسه ضد مغتصبى حقوقه من الاتراك والمماليك وأيا كانت دوافعه وراء ذلك فإن مواطنه الآخر ، أى ضابط فرنسى آخر ، عندما نزل الجزائر بأسطوله ومدافعه ذات يوم من عام ١٨٣٢ ، كان أول منشور له بالفرنسية يقطر تهديداً ووعيداً .

إن صديقى جان مارسيل أمبير مدير المخطوطات بقسم المصريات بمتحف اللوفر وصاحب أشهر رسالة دكتوراه عن مصر بعنوان «الولع بمصر فى الفنون الغربية» روى لى عندما كان مدير مكتبة متحف الانفاليد الحربى بباريس والذى يضم رفات ومتعلقات نابليون أن أعداداً هائلة من منشورات الحملة بالعربية والفرنسية مازالت تقبع فى أدراج وعلب خاصة جداً ولم تأخذ حظها بعد من النشر والفحص .

إن كماً هائلاً من الكتب والمخطوطات بل والموسيقات والمقطوعات الموسيقية المستوحاة من مصر مازالقتابعاً بمكتبات وخزائن فرنسا على نحو ما فصلناه فى رسالتنا للدكتوراه والتى قدمناها للسوربون فى يونيو ١٩٩٢ .

بالطبع ربما يدخل كل هذا فى إطار ثقافى تبادلى على طريقة «أخذوا منا وأخذنا منهم» إلا أن الأهم هو أن توضع الحملة

الفرنسية فى إطار تاريخى صحيح ولا تفصل فيه العناصر السياسية من العناصر الأدبية أو العناصر الأركيولوجية من العناصر العسكرية وأن يفهم المواطن هنا أن ما هو عسكرى ليس سيئاً كله ، ذلك أن حركات التغيير الكبرى فى شرقنا الأوسط كانت تبدأ فى الاغلب الأعم وذلك كما علمنا التاريخ بحركات عسكرية يعقبها حركات اجتماعية وفنية قد تطول وقد تقصر وقد تترك أثراً فى المجتمع وقد لا تترك إلا أنها تبدأ دائماً بحركة عسكرية . ويجب أن يعلم المواطن ايضاً أن الحركة العسكرية ، أو لنقل الحملة العسكرية لنابليون بونابرت لم تكن من نتائجها فقط «كتاب وصف مصر» أو «قناة السويس» بل أيضا اكتشاف الهيروغيليفية على يد شامبليون فى الثلاثينات من القرن الماضى وايضاً مشاريع تحديث مصر فى عهد إسماعيل ولنذهب أبعد من ذلك لنقول إن من نتائج حملة نابليون على مصر إنشاء جامعة سنجور الفرانكوفونية بمدينة الإسكندرية .

والقارىء لمخطوط ليبنيز يلحظ أن الفيلسوف قد أفسح مجالاً واسعاً للجانب غير العسكرى ، وبل وأعطى للعنصر الإنسانى أهمية كبرى يكاد يتوقف عليها نجاح المشروع .

وهو ما استفاد منه نابليون نفسه فيما بعد فتوجه في منشوراته إلى المصرى صاحب البلد ثم أعطى للأقباط في مصر أهمية كبيرة ، تماماً كما فعل ليبنيز ، ولو أن مسألة المعلم يعقوب القبطي حار فيها المؤرخون إلا أنه من الثابت أن المشروع القبطي لنابليون كان مطروحاً على بساط البحث ، غير أن هذا لا يلغى أن الرجل لم يكن للمسلمين وللإسلام عداء أو كراهية كتلك التى كانت تعتمل في نفس ليبنيز ، وما أظهره من تعاطف بل وإصرار على اقامة احتفال أهالي القاهرة بالمولد النبوى الشريف بل وأصدر مرسوماً يجعل ذلك اليوم عيداً وطنياً رسمياً ، وما كان من اهتمامه بإدخال نظام ديوان شورى العلماء وإصراره على أن يكون أعضاؤه الاساسيين من علماء الأزهر ومن بعض علماء الحملة. إن كل هذا أدلة قاطعة على أن الرجل كان ينوى اعطاء العنصر الإنساني لحملته بعداً خاصاً ، وكان ينوى أن يعطي البعد المصرى لحملته أهمية قصوى، ولنتذكر جيداً عبارتيه الخالدتين : الأولى يوم وصوله إلى أرض معركة امبابة الشهيرة والمعروفة في أرشيفات الحملة باسم «معركة الأهرام» عندما نظر إلى الأهرامات وقال لجنوده :

«عشرون قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق هذه الأهرامات»

والعبارة الثانية التي قالها لعلمائه وكان حاضراً أول اجتماع

«لمعهد مصر» المكون من علماء الحملة وكان حاضراً بجواره العالم الاشهر مونج ، عندما التفت نابليون إلى مونج وقال «لو شاء لى القدر أن أحكم هذا البلد مدة طويلة ، لما ضاعت قطرة واحدة من مياه النيل فى البحر» .

ومن الواضح تماماً أن ليبنيز قد أغفل الجوانب الإصلاحية الممكن إقامتها فى مصر لأنه ركز كل اهتمامه على الوصف العام للأوضاع المتدهورة فى مصر وركز بشكل أكثر على سهولة اختراق مصر واحتلالها . إن الفارق بين مشروع ليبنيز ومشروع نابليون وربما يكون الفارق الرئيسى هو أن الأول لم تكن له علاقة لا من قريب ولا من بعيد بانجلترا بل كان همه الأساسى هو ضرب الاسلام متمثلاً فى الامبراطورية العثمانية المريضة وبالطبع إغواء الملك الشمس عن غرضه الأساسى وهو احتلال هولندا ، أما المشروع النابوليونى فهو مشروع ممتد فى الزمان بمعنى أن الهدف منه كان سياسياً بالدرجة الأولى حاملاً معه ابعاداً تاريخية وعلمية وفنية ضاربة فى جذور الزمن وممتدة لما بعد الحملة نفسها على نحو ما رأينا فى مشاريع التنمية والتحديث والتنوير التى قادها الفرنسيون فى مصر ، باختصار كان مشروع ليبنيز محدوداً رغم حديثه عن خلاص العالم والإنسانية وصحوة

المسيحية ، أما مشروع الجمهورية الفرنسية ونقصد بهذا تقسيم التاريخ الفرنسى فيما يخص مصر إلى عصرين المشروع المصرى فى عصور الملكية الفرنسية من لويس التاسع صاحب واقعة المنصورة الشهيرة عام ١٢٥٠ إلى لويس الرابع عشر وحتى لويس الخامس والسادس عشر على نحو ما بيّنا فى النص الأخير من هذا الكتاب : وهناك المشروع الجمهورى المتمثل فى حملة نابليون العسكرية وحملة السان سيمونيين العلمية ومشاريع أخرى كثيرة ، وكان الفارق الاساسى بين المشروعين هو نظرة كل من النظامين إلى الإسلام وحاميته وقتئذ الدولة العثمانية ، فبينما كان النظام الأول يعتبر الإسلام درعاً ضد الحصار الواقع عليه من النمسا فى الشرق وأسبانيا فى الغرب فكانت معاهدة الامتيازات الشهيرة بيد فرانسو الأول والسلطان العثمانى ثم مؤازرة ملوك فرنسا للباب العالى ومساعدتهم له فى حروبه ضد الروس .

فما أن قامت الثورة الفرنسية وتبدلت خارطة التوازنات فى أوربا وأصبحت انجلترا أعدى أعداء فرنسا . أصبح لزاماً على فرنسا أن تغير من تكتيكها وأن تفكر أولاً فى توجيه ضربة قاصمة إلى انجلترا ، ولما كان من الصعب توجيه ضربة موجعة مباشرة إلى سيدة البحار وصاحبة الامبراطورية التى لا تغيب عنها

الشمس . أصبح الأخذ بفكرة ليبنيز لا مناص منها ألا وهى الضرب الموجع على البعد أى «الالتفاف» بالمعنى الاستراتيجى لا بمعناه التكتيكي حول نقطة ضعف بعيدة عن مركز قوة العدو ، كأن نقول اليوم . مثلاً ، يمكننا ضرب الولايات المتحدة فى كوبا (راجع أزمة خليج الخنازير) أو ضرب انجلترا فى الهند أو مصر فى الحبشة إلخ . كان ليبنيز من أوائل الذين نبهوا إلى هذه الفكرة وكان نابليون ولا شك من أوائل الذين نفذوها . إن نقاط الاختلاف والاتفاق كثيرة بين مخطوط ليبنيز وبين مشروع نابليون فى مصر والشرق ، يجب درسها بدقة وبعناية مع الأخذ فى الاعتبار شخصية ليبنيز نفسها وشخصية بونابرت على اعتبار أن لديهما طموحات كونية إحداها فى إطار مسيحى خالص والأخرى فى إطار علمانى بحت .

تبقى نقطة أخيرة سيتوجب أخذها فى الاعتبار عند درس مخطوط ليبنيز وتاريخ الحملة الفرنسية على مصر ألا وهى موقف الشعب المصرى من هذه المسألة . فمن الواضح تماماً أن عصر ثورة على بك الكبير أواسط القرن الثامن عشر كان ينذر بتغيرات عميقة فى لحمة وسداة الشعب المصرى وأن ما قام به محمد على لم يكن ليؤتى بنتيجة إذا لم يكن هناك طبقة من العلماء وطبقة من

الطلاب وطبقة من العارفين والعالمين وطبقة من التجار المتفتحين خاصة هؤلاء الذين يتعاملون في موانىء مصر مع تجار الغرب وسفنه ، ثم لا ننسى أنه كانت هناك ايضاً طبقة من الكتاب والشعراء علي درجة عالية من التفتح على نحو ما يصف الجبرتى وإلا ما كان هناك لا جبرتي ، ولا حسن العطار ولا غيرهما من كبار العلماء الذين سيلعبون دوراً هائلاً فى مصر أوائل القرن التاسع عشر مع قدوم محمد على إلى مصر .

ثم لا ننسى أنه خلال ثلاث سنوات هى عمر الحملة الفرنسية هبّ المصريون مرتين ، كانت الثانية على وجه الخصوص ذات طابع ثورى محض ورافض رفضاً أكاد أسميه «فكريا» لفرنسا والفرنسيين ..

كان هناك إذن جذور ، بل أصول حركة نهضوية إصلاحية هائلة كانت تنتظر الشرارة الخاصة التى جاءت ظروف القرن التاسع عشر وجعلت من مصر الدولة التى نعرف، ومن دورها الدور الذى نعرف جميعاً .

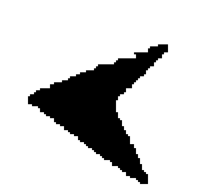
نجد أيضاً أن ليبنيز أهمل المصريين تماماً وجعلهم حثالة من المسلمين الأقذار متناسياً تماماً ، وهو العالم الكبير ، موقع ومكان الشعب المصرى على خريطة الحضارة فى العالم ، وهو الشىء التى لم ينساه نابليون .

إن اقتراب موعد احتفال العالم بمرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر ، وذلك بعد أربع سنوات من صدور هذا الكتاب لهو مصادفة غريبة ربما أراد بها القدر أن نتنبه إلى أن المسافة بين ليبنيز و١٧٩٨ طويلة وأن كل يوم فيها كانت فكرة غزو مصر تتخمر وتتخذ ابعاداً سياسية بالطبع ولكن ايضاً أبعاداً فنية وأدبية وعلمية فإذا ما أقبل عام ١٨٠١ كان حلم ليبنيز الحقيقى فى طريقه إلى التحقيق مع قدوم ضابط ألبانى مجهول من بلدة بعيدة فى ألبانيا اسمه محمد على ، وتحكى الروايات أنه عندما كان فى طريقه إلى الاستعداد للخروج من بلدته قولة Kavala بألبانيا والذهاب إلى مصر للعمل بالجيش التركى وطرد الفرنسيين خرج عليه بعض قطاع الطرق وكادوا يفتكون به ، لولا عناية الاقدار التى شاءت أن يمر بالمصادفة ذلك الوقت قنصلاً فرنسياً شاباً كان فى طريقه إلى سوريا والشام للعمل كقنصل لبلاده بها فأنقذه من براثن العصابة التى خرجت عليه ، وانفعل «الباش بوزوق» التركى محمد على بالموقف ولم يكن معه ما يسد رمقه فشكر الشاب الفرنسى ووعده برد الجميل إليه عندما يصبح ذا شأن فى مصر ليس فقط له بل ولأبنائه ايضاً . هذا الشاب القنصل اسمه ماتيو ديليسبس Mathieu De Lesseps وكان يحمل على ذراعه طفلاً صغيراً اسمه فرديناند.

ملحق رقم ١

تطور فكرة غزو مصر من مشروع ليبنيز فى عهد لويس ١٤ إلى مهمات التجسس فى عهدى لويس الخامش عشر ولويس السادس عشر وحتى غزو نابليون .

فى الصفحة المقابلة صورة بخط يد الملك لويس الرابع عشر، وهى رسالة وجهها إليه الفيلسوف ليبنيز وفيها يعرض المزايا المادية والأدبية لمشروعه بغزو مصر .



Lettre
au Roy de France Louis XIV.

Sire

Votre M^té^ me permettra que je luy presente ce petit [illegible]
qu'Elle, quoyqu'il n'ay pas d'abord assez d'apparence, ne dedai[gne]
pas de considerer selon l'importance du sujet qui y est traitté
pour le bien de Son service ; dont l'auteur, homme de quelque[s]
qualitez considerables, est si passionné qu'il croit Elle presque seu[le]
en nostre temps assez genereuse et assez puissante a entreprend[re]
heureusement quelque grande chose pour la felicité du genre
humain. Et pour cela il a aussi trouvé que personne n'est si
capable a entendre avec effect à sa proposition.
Il confesse pourtant luy mesme, qu'elle paroisse d'abord un peu
chimerique, et sur cela il a balancé long temps, s'il devoit
prendre la hardiesse de la proposer : mais m'ayant expliqué naïve-
ment (distinctement) sa pensée quoique je ne suis pas accoustumé
autrement à me meler des propositions de cette nature, j'ay nea[n]-
moins trouvé l'affaire digne au moins d'estre considerée avec
attention, principalement puisqu'il a montré que quelques grands
Princes et Ministres du temps passé ont eu ce dessein maintenant
obliteré ; mais qui n'ont pu venir à bout, ny mesme [illegible]
cer a cause de quelques empechements bien connus : la providence
l'ayant reservé tout entier à V^re^ M^té^.
J'ay donc luy conseillé de ne tarder plus, ni de laisser passer ce mo-
ment des affaires qui semble estre opportun. mais comme il a
eu l'apprehension de consumer mal à propos la grace de la no[u]-
veauté, et de perdre peut estre l'esperance du succés pour jamais
par la premiere mauvaise rencontre puisqu'on est fastidieux par
apres d'entendre une chose deux fois l'ayant deja rejettée ou
negligée et à cause de quelques conjonctures au commencement
peu favorables : il a voulu en user de cette sorte, et ayant expli-
qué dans le billet cy joint les effects de cette entreprise, qu'il
pretend à demonstrer, il a cru estre plus à propos de découvrir
les moyens particuliers si tost qu'il auroit obtenu une favorable

فى الصفحة المقابلة نص مخطوط رسالة موتييه إلى نابليون (انظر ترجمتها فى مقدمة النص الفرنسى).

وأسفر الصفحة نص استلام المخطوط من العلامة «مونج» بخط يد أمين مكتبة معهد فرنسا عام ١٨١٥.

Au quartier General
le 11 thermidor an 11 de la République franç...

Edouard Mortier Lieutenant Général
Commandant en chef

Au Premier Consul.

Mon Général.

Le Célèbre Leibnitz avait proposé à Louis XIV la conquête de l'Egypte son mémoire manuscrit sur cette partie intéressante du Globe, écrit en latin, est déposé à la Bibliothèque d'Hanovre, j'ai cru qu'il ne vous serait point indifférent de le lire.

Veuillez recevoir, Mon Général, l'assurance de mon Respectueux Dévouement.

Ed. Mortier

Je soussigné Bibliothécaire de l'Institut reconnois que M. Monge membre de l'Institut m'a remis en dépôt pour la Bibliothèque un manuscrit inédit de Leibnitz
Paris le 3. Juillet 1815
Charles.

فى الصفحة المقابلة مخطوط مهم بخط يد الدوق دو بومبونيه سكرتير الملك لويس الرابع عشر، وهو عبارة عن رسالة موجهة إلى ليبنيز بتاريخ ١٦٧٢. والمخطوط عبارة عن صورة من هذه الرسالة بخط المرسل إليه ليبنيز نفسه .

lettre de Mr de Pomponne à Mr Leibnitz suivant la copie faite par Leibnitz lui même ci jointe.

A St Germain le 12. Fevrier

40

Monsieur,

J'avois deja receu par le Sieur Heis les lettres qu'il v. avoit pleu de m'écrire. Mr. Verjus m'a envoyé depui celle du 1er de ce mois. Toutes m'obligent à Vous temoi combien je suis sensible à vos civilitez, et combien je l te avec plaisir de cette occasion pour Vous asseurer de l me que j'avois conceüe depuis long temps pour Vo merites, et dont je suis bien aise de Vous faire paroi moy même la verité. J'ay pu l'honneur de rendre au Roy non seulement de Vos lettres, mais des memoires Vous y avez joints, et qui portent en general un avis grand pour la gloire et l'avantage de Sa Mté, sans qu' voir par quels moyens il se peut executer. Comme l'Auth s'est reservé (ainsi que Vous le marquez) de s'en pouv declarer luy même, Sa Mté verra volontiers les ouve qu'il auroit à faire, soit qu'il veuille faire venir icy p s'en expliquer, soit qu'il le veuille faire par telle autre que Vous jugeriez à propos. Dans une proposition d'auta d'Estendue et qui promet de si grandes choses, Sa M considere particulierement l'opinion que Vous en ave par la connoissance qu'Elle a de Votre discernement de Vos lumieres. Croyez moi s'il vous plait avec ve

Monsieur

Votre tres humble et tres affectionné Serviteur
Arnauld de Pomponne.

فى الصفحة المقابلة رسالة بخط يد أمين مكتبة هانوڤر حيث يوجد مخطوط ليبنيز، والرسالة موجهة إلى الضابط الفرنسى وحاكم المدينة. والمخطوط كما يبدو للقارىء صعب القراءة .

ma bonne volonté, comme le prouve la lettre écrite par une autre main en dictant au bibliothécaire. Aussi est-il parlé dans ces lettres de beaucoup de dépenses, comme d'un tiers. Ce n'est pourtant pas par cela que mon observation se vérifie; mais sur la déclaration insérée au Recueil du gouvernement concernant ce manuscrit. J'ai l'honneur d'être avec un profond respect

de Votre Excellence

le très humble et très obéissant serviteur
F.X. Feller

ملحق رقم ٢

خرائط وصور مهمة متعلقة بالمشروع المصرى فى الفكر السياسى .

أندريه دوترتر André Dutertre لقد أدى أندريه إلى الإنسانية خدمة لا تنسى، لأنه، وهو رسام الحملة، أخذ رسم بورتريهات بالقلم الرصاص لكل قواد وضباط الحملة وكذلك العلماء.. ومنها هذه البورتريهات التى أمام القارىء الآن، ولذا فقد بدأنا به.



رسم أندريه دوترتر لنفسه



أحد البورتريهات «بالبروفيل» النادرة لنابليون فى مصر (رسم أندريه دوترتر) .

رسم أندريه دوترتر لنفسه



برتوليه Bertholet ١٧٤٨ - ١٨٢٢ واسمه بالكامل لويس كلود برتوليه أشهر كيميائى فرنسى وأحد مؤسسى «معهد مصر» .

رسم أندريه دوترتر لنفسه

لويس كوستاز Louis Costaz
١٧٦٧ - ١٨٤٢ أشهر مهندسى الحملة وفرنسا على الإطلاق وصاحب كتاب مهم عن «مشروع قناة السويس» وهو أحد مؤسسى «معهد مصر» الذى أسسه نابليون بمصر. وكانت له مشاريع مهمة لإعادة تخطيط شوارع وميادين القاهرة .



رسم أندريه دوترتر لنفسه

ديچينيت ١٧٦٢ - ١٨٣٧ اسمه بالكامل رينيه نيكولا René-Nicola Dufriche Desgenettes طبيب على درجة عالية من الكفاءة فى عالم أمراض المناطق الحارة، وقد شارك بفعالية فى مكافحة الطاعون بمصر والشام .



رسم أندريه دوترتر لنفسه

أرنو Arnault ١٧٦٦ - ١٨٣٤ اسمه بالكامل انطوان فنسان أرنو وهو عضو بالاكاديمية الفرنسية العريقة وشاعر وكاتب شهير وأصبح سكرتيرا للشئون الثقافية لنابليون في القاهرة ومراسلا بينه وبين أعضاء «الديوان» من المصريين .



رسم أندريه دوترتر لنفسه



لان Lannes ١٧٦٩ – ١٨٠٩ لم يكن فقط ضابطاً بمصر بل صديقاً حميماً لنابليون حتى أنه كان الوحيد الذى يناديه باسمه مباشرة .

رسم أندريه دوترتر لنفسه



چـــان دومينــــيك لارى Jean-Dominique Larrey

١٧٦٦ - ١٨٤٢

أشهر جراحى فرنسا فى القرن التاسع عشر على الاطلاق، استحوذ عليه نابليون واصطحبه معه إلى مصر حيث أعد أول مشروع لإنشاء مستشفى حديث فى مصر .

رسم أندريه دوترتر لنفسه




لاڤاليت Lavallette وزوجته وهو مساعد نابليون الخاص وسكرتيره وقد عاشا بمصر ورحلا عنها بعد رحيل نابليون بأسابيع .

رسم أندريه دوترتر لنفسه

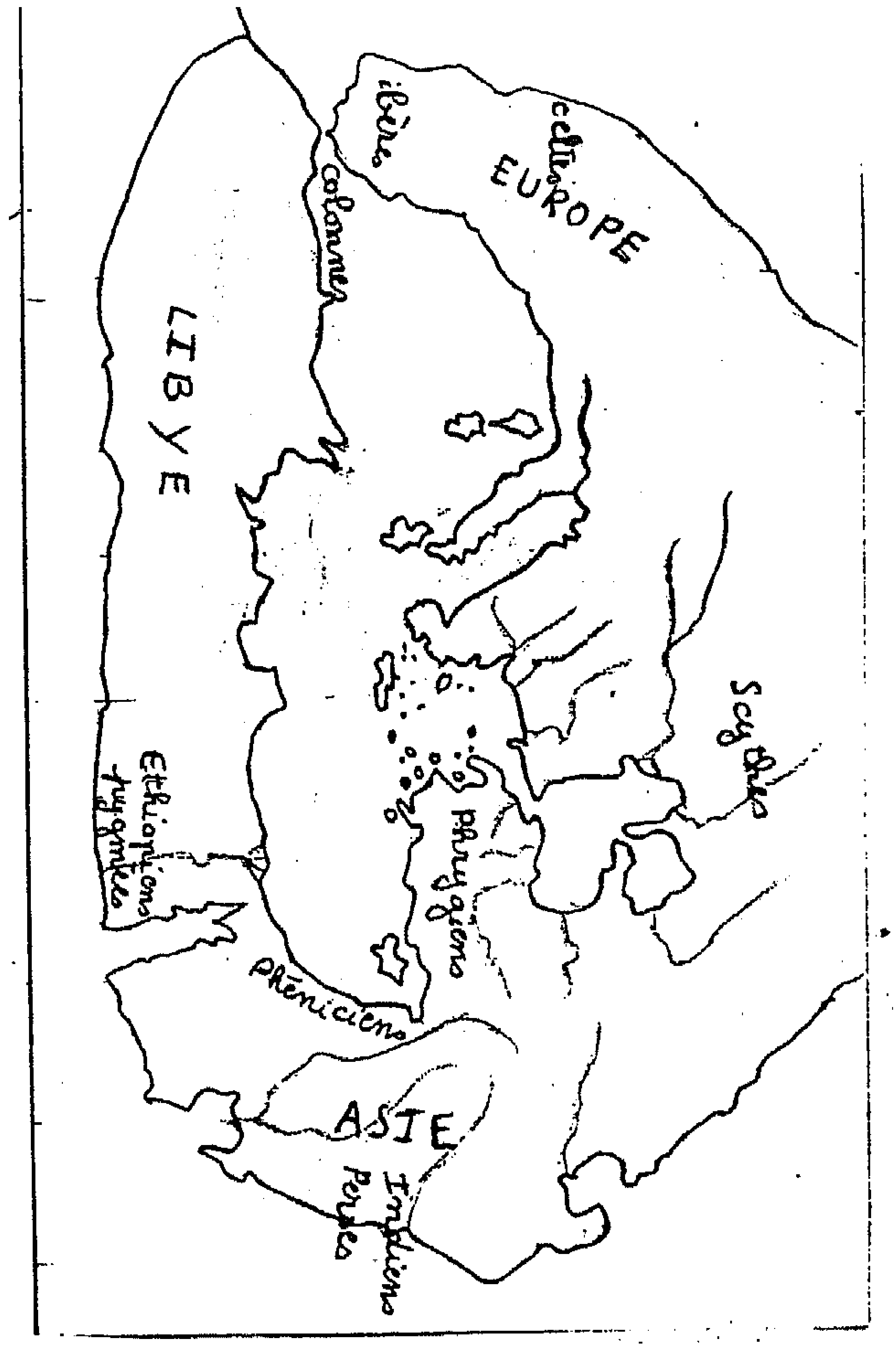


ديزيه Désai ١٧٦٨ - ١٨٠٠ الضابط الفرنسى الشهير، اسمه الكامل لويس شارل انطوان Louis-Charles-Antoine وصاحب الحملات الشهيرة على صعيد مصر والتى كان بعضها برفقة علماء الحملة . وكان يلقب فى الصعيد بـ «السلطان العادل "Sultan Juste" .

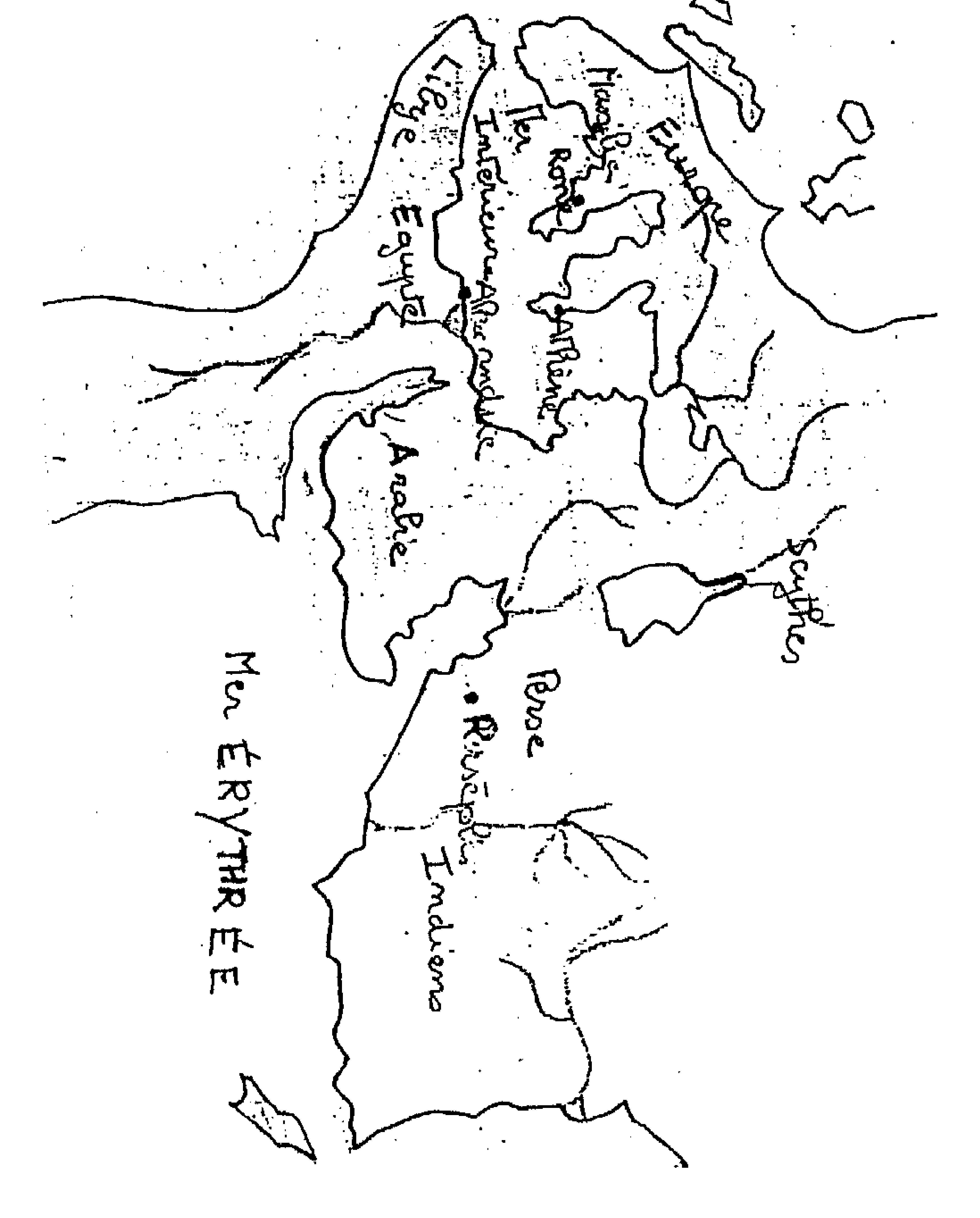
رسم أندريه دوترتر لنفسه

معظم هذه الخرائط التى تروى تطور صورة مصر فى العالم الغربى من العصور القديمة وحتى العصور الحديثة وعلى وجه الدقة حتى عصر ليبنيز مأخوذة من خرائط المكتبة الوطنية بباريس ، والخريطتان الأوليان رسمتهما بنفسى نقلاً عن مخطوط نادر يونانى من العصور القديمة .

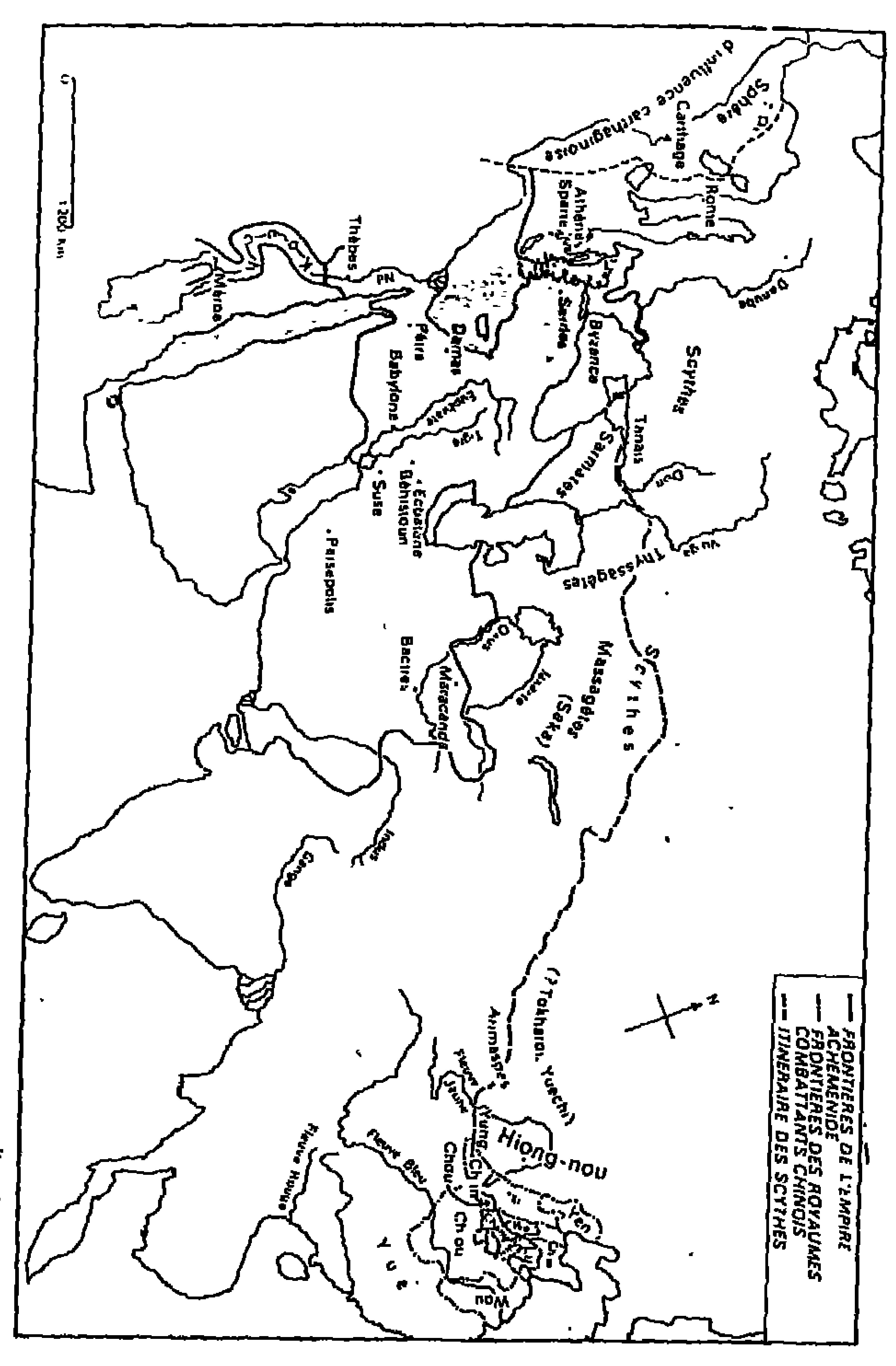
وبالطبع لنا أن نتصور هذه الخرائط على موائد البحث والدرس لرجال الفكر والسياسة كل مرة يبحثون فيه مشروع ليبنيز أو مشروع تنفيذه عسكرياً .



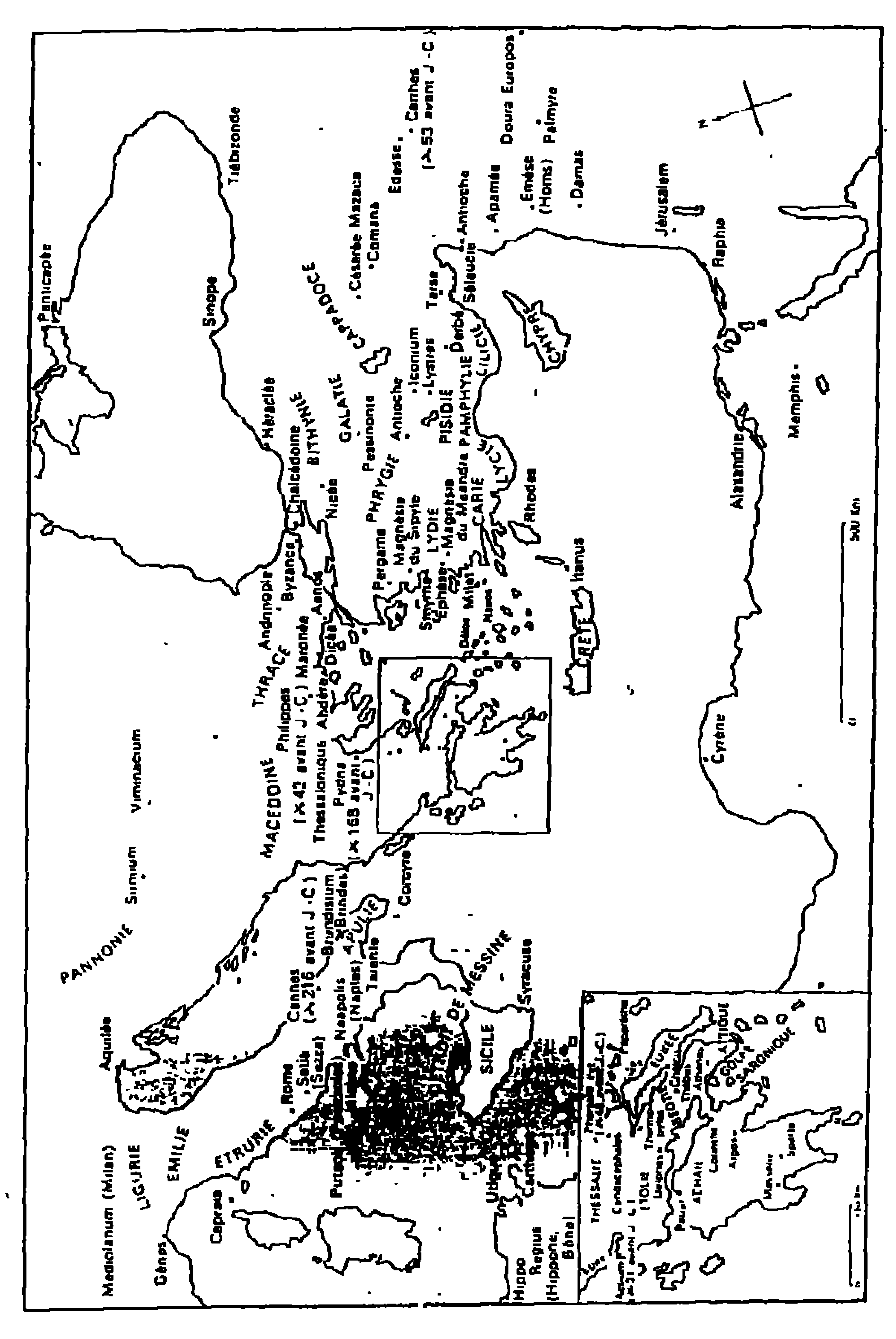
منظر العالم المعروف حتى القرن الخامس قبل الميلاد



خريطة إرستطوطان Erastothéne أواسط القرن الثالث قبل الميلاد



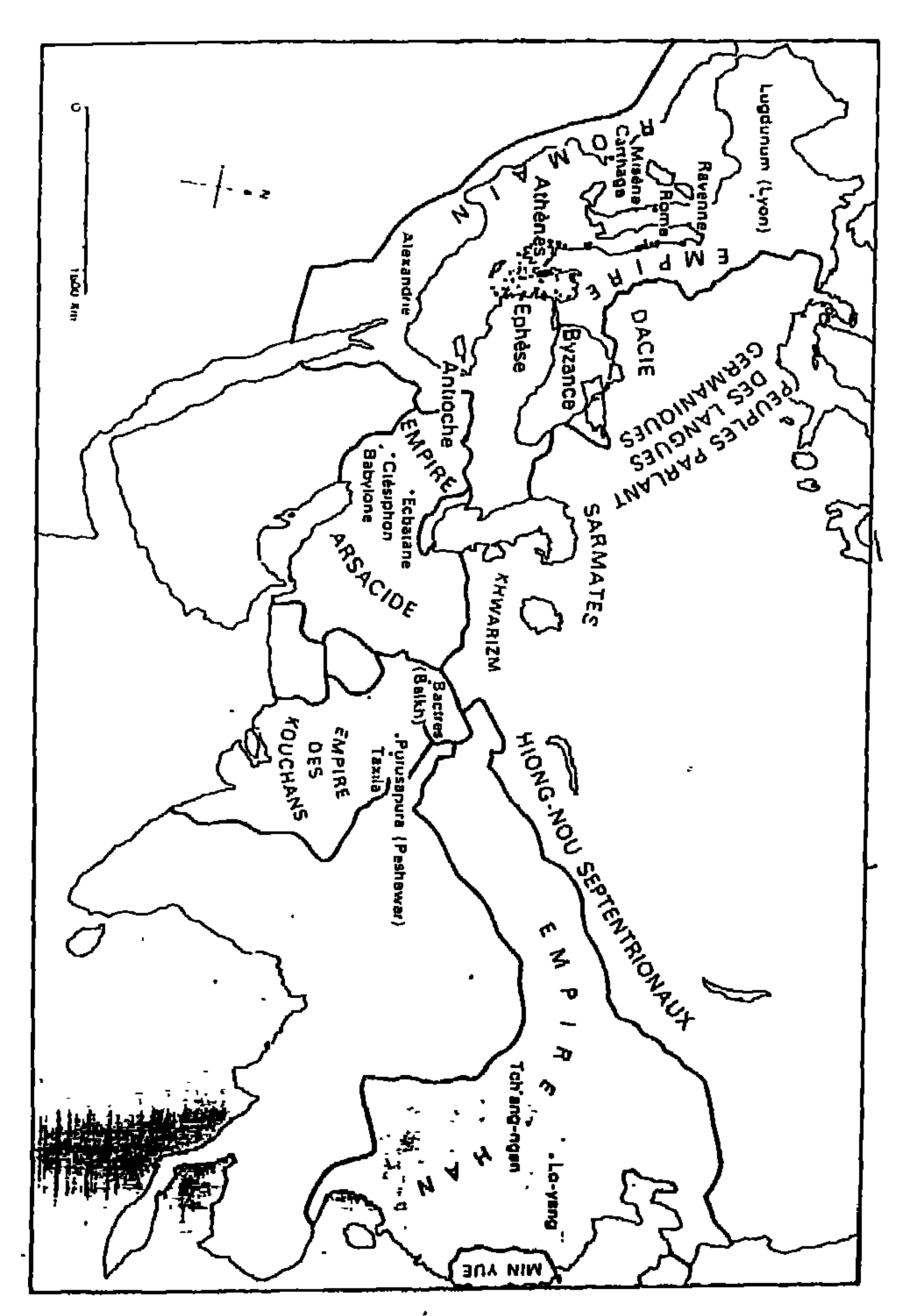
حدود مصر التجارية برا وبحرا مع الغرب (خريطة تعود الى ٤٨٠ قبل الميلاد)



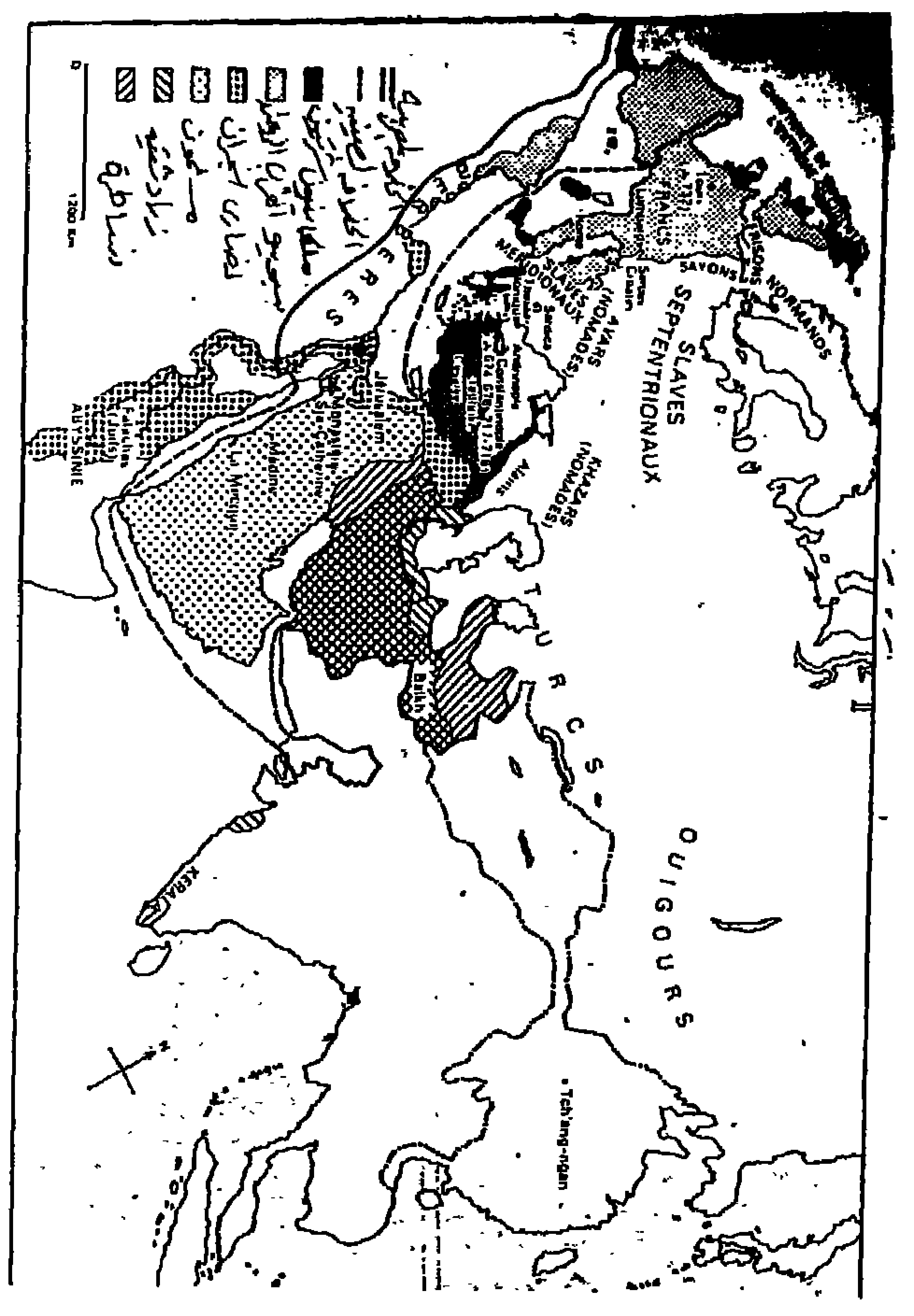
العالم الهلينستي حوالى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد .



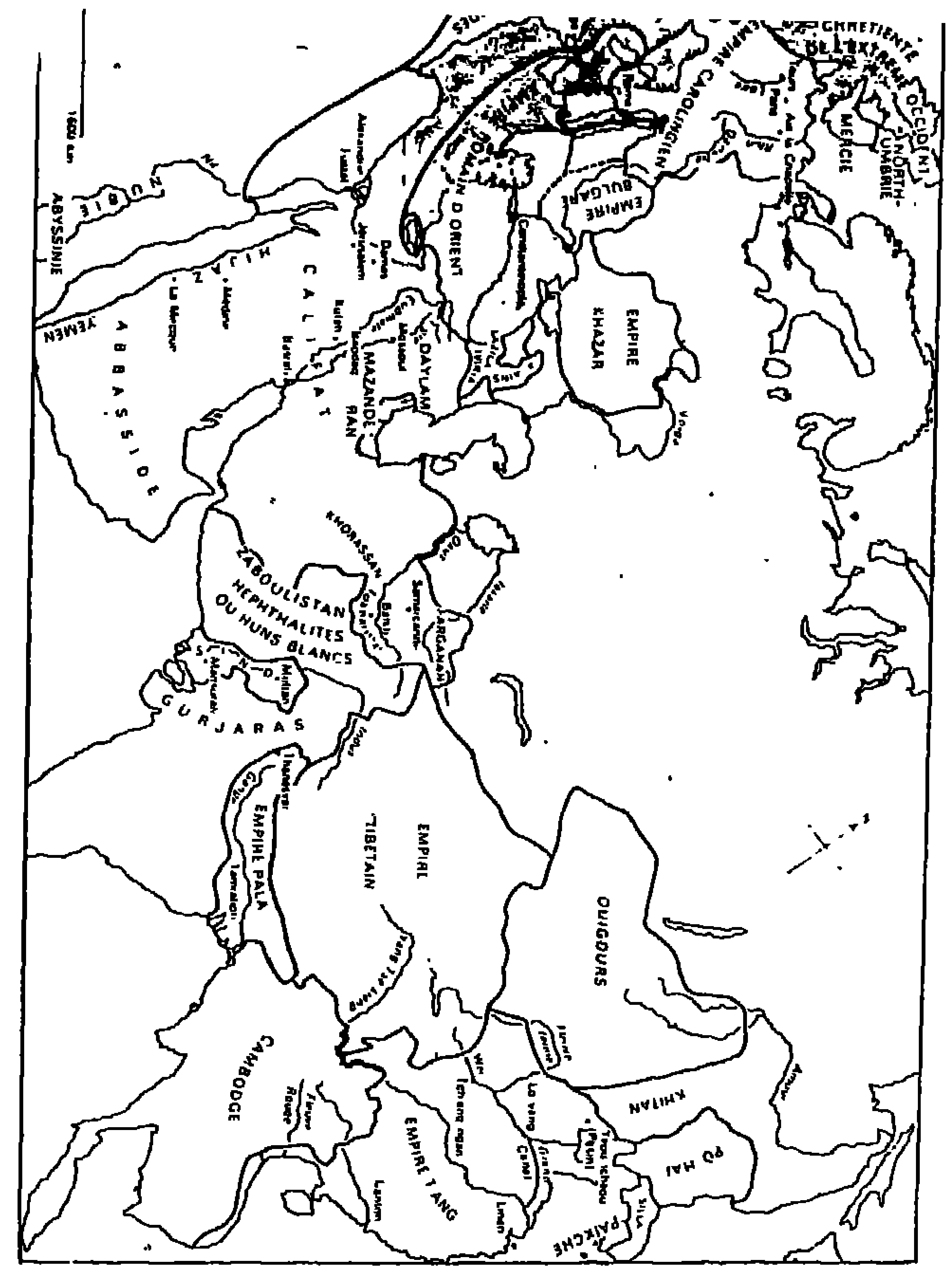
خريطة لامبراطورية مصر البطلمية وسط إمبراطوريات العالم حوالى سنة ١٧٧ قبل الميلاد .



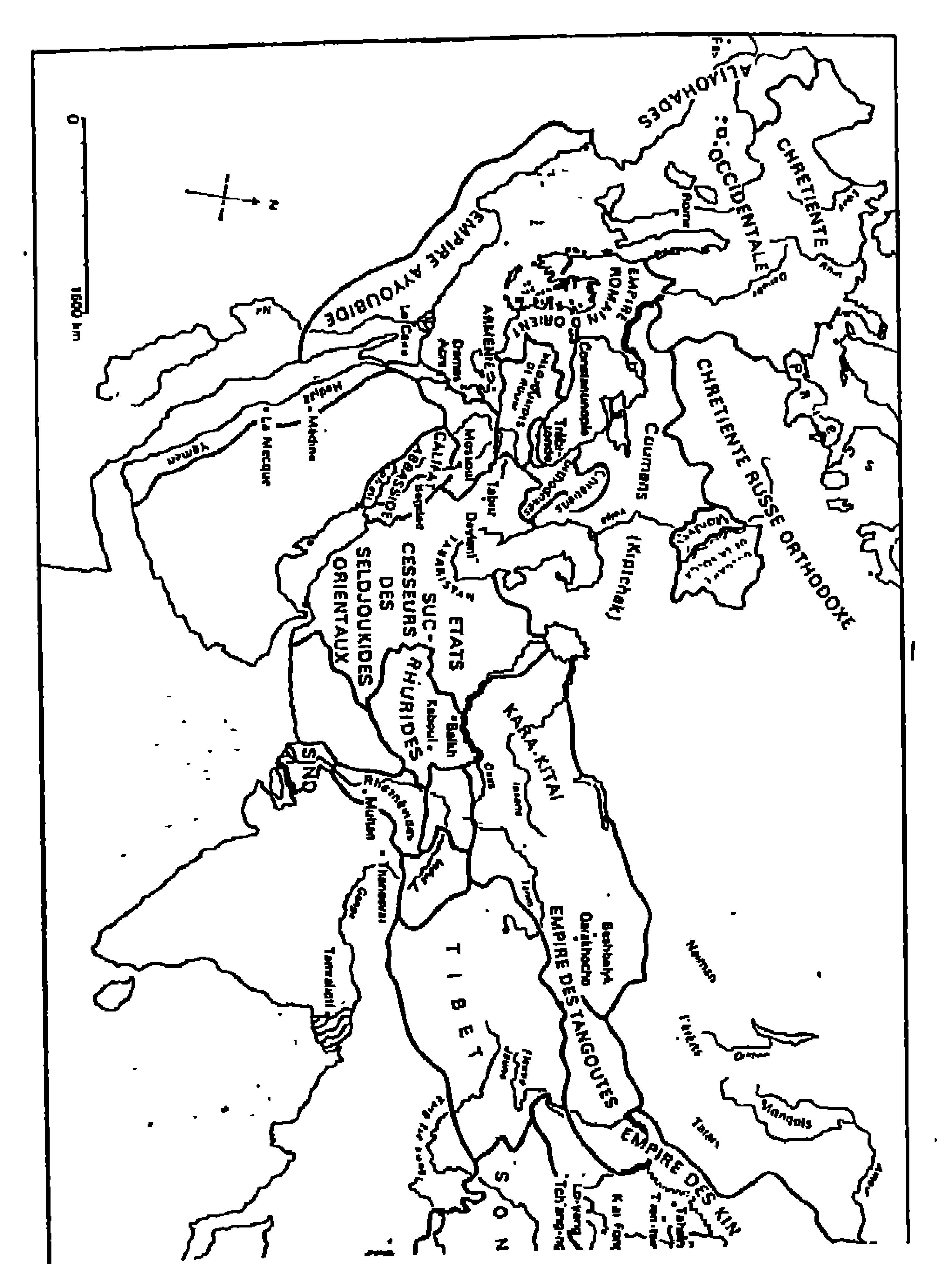
موقع مصر داخل الإمبراطورية الرومانية حوالى عام ١٠٠ ميلادية .



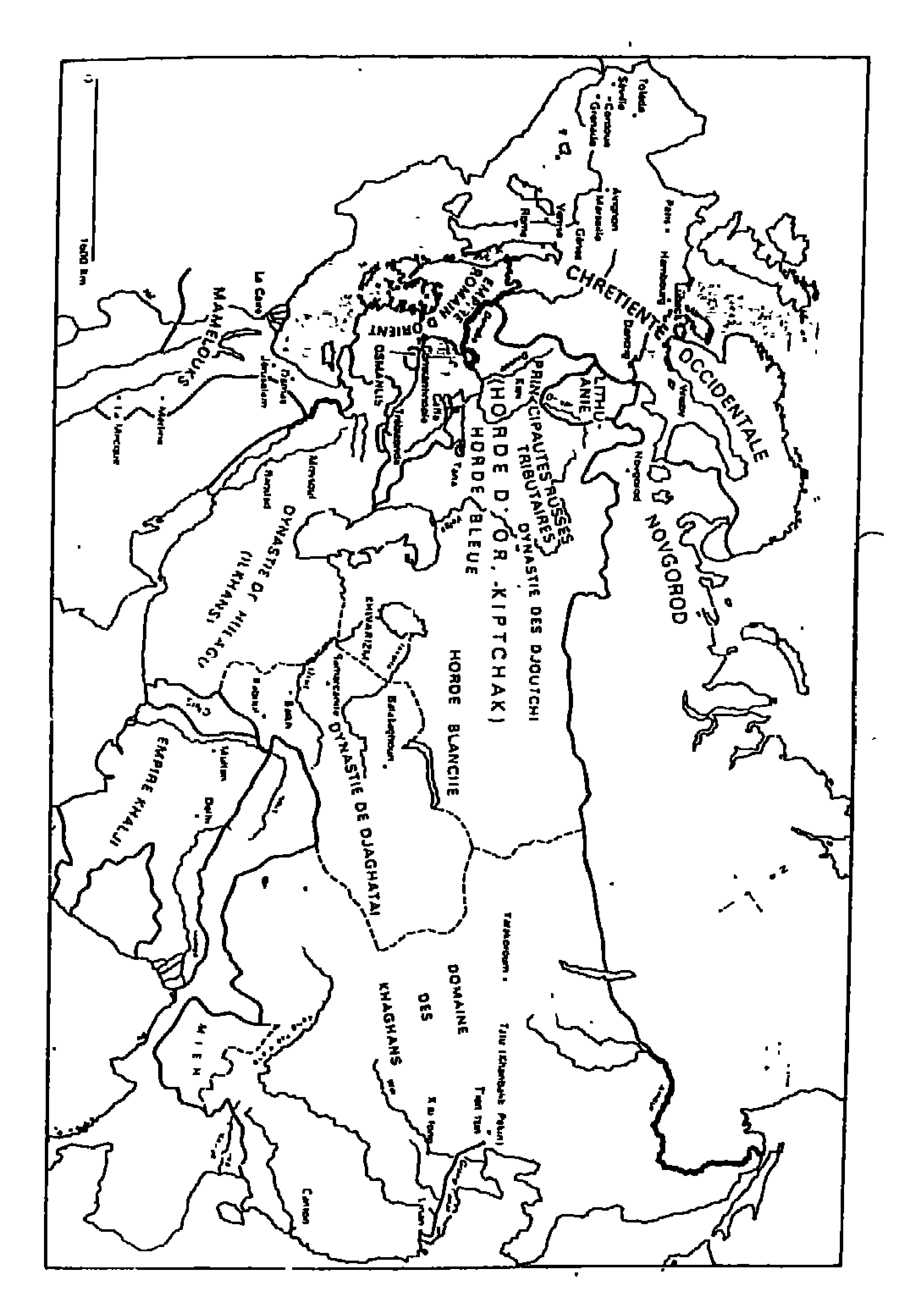
توزيع الأديان السماوية على العالم القديم حوالى سنة ٧٣٢ ميلادية .



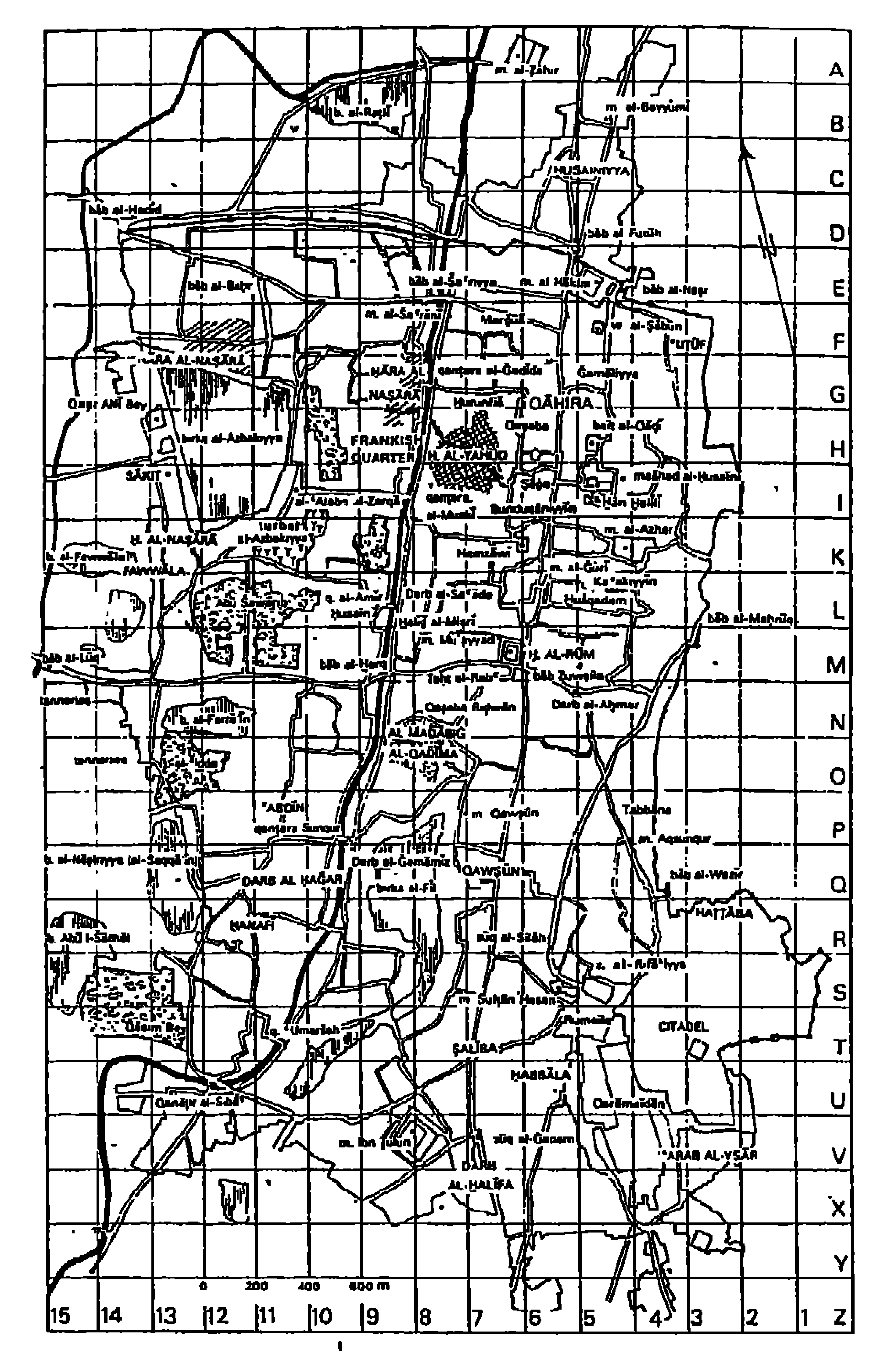
حدود الإمبراطورية العباسية وسط إمبراطوريات الرومان الشرقية (البيزنطيين) وامبراطورية طانج الصينية ثم امبراطورية الكارولنميين فى فرنسا (حوالى سنة ٨١٥) .



الدويلات القوية الناشئة عن انحطاط الإمبراطورية العباسية وإمبراطورية طانج فى الصين (حوالى عام ١١٧٥) .



إمبراطوريات المغول ودولة المماليك القوية حوالى عام ١٣١٠.



خريطة نادرة للقاهرة تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر .

الصفحة الأولى من الأصل اللاتيني للمخطوط تنشر لأول مرة

Consilium Aegyptiacum.

Summa.

Maximum eorum quae suscipi
possunt, facillimum eorum
quae magna sunt, periculi
expers esse frustra susciperetur,
praesenti destinationum lineae
ita consentaneum, ut quasi prae
meditatum videri possit, admi-
rationem eorum aucturum, qui
profundam istam consiliorum inter
se connexorum sapientiam le mi-
racle du Secret appellant.

Ad dominium maris et commer-
ciorum efficacissimum, non nisi
praesentium apparatuum super-
stitis gerendum. Publicum
amorem deletis odiis suspicioni-
busque Ludovico paraturum.
Daturum arbitrium rerum et
Generalatum Christianorum.
Sternet viam posteritati, imo
ipsi Ludovico ad ausus Alexan-
dreos; sine amittendae occasionis
metu diutius non differendum.

hominum delectum, olim tamen maximis sapientissimisque viris placuit, velut unicum restaurandum rerum Christianarum instrumentum.

Prima ejus origo fuit a captivo. Cum enim Philippus Galliae et Richardus Angliae Reges expeditionem maritimam suscepissent in terram Sanctam, et Ptolemaida cepissent, Philippo inter captivos obvenit Arabs, quem historici vatem vocant, ego sapientem fuisse credo, nomine Caracux, is a Rege de belli ratione interrogatus, praedixit Christianis omnes in terram Sanctam expeditiones frustra fore, nisi Aegypti regnum everteretur. Id Philippus ita probavit, ut statim verti arma voluerit in Aegyptum: at Richardus Anglus, qui spe regnum Hierosolymitanum devoraverat, noluit: Philippus iratus domum rediit.

MÉMOIRES

PRÉSENTÉS

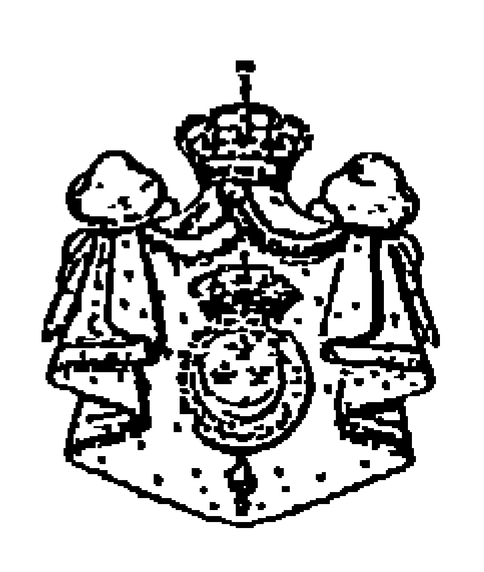
A L'INSTITUT D'ÉGYPTE

ET PUBLIÉS SOUS LES AUSPICES

DE

SA MAJESTÉ FOUAD Ier, ROI D'ÉGYPTE

TOME QUATORZIÈME



LE CAIRE
IMPRIMERIE DE L'INSTITUT FRANÇAIS
D'ARCHÉOLOGIE ORIENTALE

1929

الصفحة الأولى من الدراسة التى كتبه فرانسوا شارل رو للملك
فؤاد عن مشروع غزو مصر فى عهد لويس ١٦

LE

PROJET FRANÇAIS
DE CONQUÊTE DE L'ÉGYPTE
SOUS LE RÈGNE DE LOUIS XVI

PAR

M. FRANÇOIS CHARLES-ROUX.

Le 6 octobre 1768, au sortir d'un entretien orageux avec le Grand Vizir, le Ministre de Russie à Constantinople, M. Obreskoff, se vit entourer d'une escorte de janissaires et conduire au château des Sept-Tours, pour y être détenu. Cette mesure de rigueur était alors de tradition en Turquie contre les représentants diplomatiques des États auxquels le Sultan déclarait la guerre. De fait, la déclaration de guerre de la Turquie à la Russie, notifiée par le Grand Vizir à Obreskoff un instant avant qu'il le fît arrêter, fut proclamée le 8 octobre dans un divan solennel, tenu au Sérail.

Il y avait environ deux ans que la diplomatie française, irritée par l'ingérence de Catherine II dans les affaires de Pologne, travaillait à lui faire déclarer la guerre par le Sultan. Le duc de Choiseul, Ministre des Affaires étrangères de Louis XV, avait donné au chevalier de Vergennes, Ambassadeur de France à Constantinople, l'instruction réitérée de s'y employer, et Vergennes, pressé par son chef de conseiller aux Turcs la rupture avec les Russes, avait dû s'exécuter, non sans appréhender pour les premiers, dont il connaissait la faiblesse, l'issue de la lutte à laquelle il avait ordre de les pousser.

Sans apprécier à sa juste valeur le danger auquel cette guerre les exposerait, Choiseul n'avait pas une haute idée de leur préparation et de leur force.

الصفحة الثانية من دراسة شارل رو





Consilium aegyptiacum.

Manuscrit de Leibnitz déposé à la Bibliothèque de l'Institut par M. Monge, membre de l'Institut.
à Paris le 3. juillet 1815.

Gallois.

Plus quatre pièces séparées ayant rapport au même Manuscrit

الصفحة الأولى من ايصال الاستلام الذى خطه مدير مكتبة معهد فرنسا بعد تسلمه المخطوط من مونج بتاريخ ٣ يوليو ١٨١٥ .

مراجع البحث

1 - Berchem (Denis Van).
le martyre de la légion thébaine Essai sur la formation d'une legende. Bale, éd. F. Reinhardt 1956..
2 - Cavaelera (F) : Saint Athanase Paris, ed. Bloud, 1908..
3 - Lacam (Jean) Les Sårrasian dans le hout moyen- age Français.
Histoire et archéologie.
Paris, éd. Mais on neuve et larose 1965..
4 - Doehaerd (Renée): Méditerranée et économie occidentale pendant le haut moyen-age. Cahier d'histoire mondiale (Janvier 1954).
5 - Zananiri Gaston "L'egypte et L'equilibre du le vant au moyen age (637-1517). Cahiers du Sud. Paris.
6 - Grousset (R) Histoire des croisades.
Paris ed. Plon 1985 3 Vol.
7 - Rousseau (Louis) les vlations diplomatiques de la France et de la Turquie au XVIII e Sié Cle.

Paris, ed. Rudeval 1908..
8 - Cherles - Roy (Fr).
France et chrétiens d'Orient.
Paris ed. Flammairion 1939..
9 - Martino (Piérre) : L'orient dans la littérature française au XVII et XVIII e Sie'cle.
Revue Orient et Occident Paris (1923).
10 - Hadcli (Djavad): Voltaire et (Islam: Thése d'université Paris, 1960,.Doctyl.
11 - Jean - Marie Carrée.
Voyageurs et écrivains français en Egypte ed. I.F.O le caire 1936..
12 - Anouar louca voyageurs et écrivains Egyptiens en France au XIXe siécle.
ed. Diclier 1970 Paris.
13 - Régnier philippe "les saints-Simoniens en egypte" 1833-1851
ed. Banque de L'union européenne Amin Fakhry Abdelnour Le Caire 1989..
14 - Reginier philippe ismaéel urbain "le voyage en Egypte" ed. L'Hsmathan paris 1994..

الفهرس

رقم الايداع : ٨٠١٣ / ١٩٩٤
I . S . B . N
977 - 07 - 0352 - 4

هذا الكتاب

هذا مخطوط مهم وخطير يقدم لأول مرة يحفل بالغرائب سواء فيما يتعلق بظروف كتابته أو فيما يتعلق بظروف ترجمته .. كتاب يكشف صفحة مجهولة ظلت خافية عن مشروع قديم لغزو مصر فى القرن السابع عشر .. تقدم هذا المشروع وسبق الحملة الفرنسية التى قادها نابليون بونابرت ، وسوف يكتمل على مرورها مائتا عام بعد أعوام قليلة لا تزيد على الأربعة ..

ويقدم هذا الكتاب أول ترجمة بالعربية لذلك المشروع الخطير الذى كتبه الفيلسوف الألمانى ليبنيز عام ١٦٧٢ باللاتينية ، والفرنسية وارسله إلى الملك لويس الرابع عشر أقوى ملوك أوربا ..

وترجع أهمية هذا المخطوط إلى أنه نص سياسى بالدرجة الأولى ، لكنه مشبع من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة بالخلفيات الدينية والفلسفية والتاريخية ، التى حكمت العلاقات بين الشرق والغرب ثم ترجع أهميته أيضا إلى أنه معالجة سياسية مبكرة جدا لمشكلة صراع القوى فى أوربا وما نتج عنها من مشكلة السيطرة على أسواق التجارة العالمية آنئذ ، ثم تعقدات ولادة العصر الحديث فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وما نتج عنها من تطور هائل فى النسيج الاجتماعى نتيجة ظهور الطبقة البرجوازية والتجارة فى المدن الكبرى والموانئ على وجه الخصوص.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا واوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

